عتاب أحمد شبيب

حبق أسود

Arab_Books

منشورات الجمل

رواية

عتاب أحمد شبيب: حبق أسود

عتاب أحمد شبيب

حبق أسود

رواية

منشورات الجمل

Tele: @Arab_Books

عتاب أحمد شبيب، مواليد ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٩ سورية، محافظة حمص، قرية المخرم في الريف الشرقي المسمى جفتليك. المؤهل العلمي: جغرافيا من جامعة دمشق،. صدر لها: **موسم سقوط الفراشات**، رواية، ٢٠١٥.

عتاب أحمد شبيب: حبق أسود، رواية
الطبعة الأولى ٢٠١٧
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٧
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© Al-Kamel Verlag 2017
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Tele: @Arab_Books

الإهداء

إلى نبيل وسائر الجوري

إلى كل من تاه في ذاك اليوم القائظ من تموز

وإلى النساء الرائعات المنتظرات على شبابيك الحبق

إلى القامات التي تظلل عالمي حتى النهاية

أبي، أمي، عمي، أنت

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

-١-

في البراري المؤثثة بالسماء والتراب حيث يتلاشى كل شيء، وجده، منذ طفولته استهوته البيوت المهجورة الخربة، لم يجرؤ على دخولها وحيداً دون رفقة، لكنه الليلة دخل المنزل الذي بلا سقف فالخوف إحساس يتعلق بالجسد والحلم انطلاقة روح، وهو يخطو فكّر بالناس الذين سكنوه، رسم ملامحهم، ثم تمردت الفكرة على العقل ورآهم، انفصل عن جسده، تبع الطفل الذي خرج من إحدى الغرف ودخل أخرى، كانت هناك ترضع برعماً ورديا وحين رفعت رأسها عن رضيعها وبدت كمن رأته، ذابت في حجر الجدار، انتهى الحلم، لم يصحُ لكن الحلم انتهى كشريط فيلم قديم، انتهى، غاب البيت وبقي هو معلقاً في الفراغ المغبش.

وعندما أدرك الصحو شعر بالسعادة والامتلاء، لقد حصل أخيراً على ملكه الخاص، ما دام السلطان يملك الأرض والسماء والبشر وكل ما تحت السماء والأرض فهو ككائن فانٍ لم يكن يملك إلا ما يهبه إياه.

هذا الصباح مستمتعاً بتفاصيل حلمه الذي خرج منه، علم بأنه

Tele: @Arab_Books

يملك كنزاً سرياً لن يأت أحد ليسلبه إياه، فحتى اللحظة لم تصل أطماع السلطان الخالد الأبدي إلى أحلام مواطنيه.

الأحلام هي الأملاك الوحيدة التي بلا ضرائب وهي الحياة الأخرى غير المراقبة التي عاشها الأتباع تحت قانون واحد عنوانه (لا تبح) املك ما تشاء من الأحلام لكن لا تبح بها، فماذا لو حدث وباح له توأمه نوار بسلسلته من الأحلام إذاً لوجب عليه اعتقاله بنفسه كما درس في كلية الشرطة لعامين كاملين (المس بهيبة السلطان هو مس بأمن الوطن) وأحلام نوار تدور جميعها حول حكاية واحدة تنتهي بإعدام السلطان والولاة والوزراء، مرة يراه معلقاً ببدلة الطيار ومرة بنياشينه الذهبية ومرة بابتسامته الاحتفالية التي يظهر بها في معظم صوره وعندها يسير هو وبيده قلم يمحي الحبر، يتسلق المشنقة ويمسح الابتسامة الجامدة تاركاً مكان الفم لطخة بيضاء.

من الغرابة حقاً أن يكونا توأمين، الشرطي العاشق لامرأة الحلم وصاحب أفظع حلم في أرجاء السلطنة، أخوين متطابقين بالملامح والطول واللون، مختلفين فقط بالرؤية التي لا كابح لها، أمر لم يدركاه لذا سارت الحكاية كما أرادها الراوي.

كان ياماك ان.

إنه مفتاح الراوي المفضل لكل حكاياته، لا يمكن توفر مفتاح آخر طالما قرب باب المقهى سيف وقيد ينتظران هفوة تسقطه في قاع الواقع وتحت حد الموت.

كان ياما كان في زمن ما وفي وطن ما عاش أخوان توأمان.

* * *

Tele: @Arab_Books

قرب باب مركز الشرطة الكبير أودع خيالاته التي رافقته طوال الطريق، عند المجنون الدائم الوقوف قرب البناء المردد لعبارات متوعدة هناك ترك دفء وجه شقيقه الذي احتفظ به بين عينيه ونفسه، ودّعه منذ ساعة في محطة الحافلات، استقل نوار أحدها لتصل به إلى المدينة المنسية في أقصى الوطن حيث يمضي خدمته الإلزامية في جيش السلطان بينما توجه هو إلى مركز شرطة المدينة حيث يعمل بشكل دائم تحت إمرة الوالي مباشرة.

منذ استلم المدينة تحوّل جهاز الشرطة إلى فريق للجري ضمن لعبة مطاردة طرفها المطارد هو الباعة على البسطات وسائقو الدراجات الهوائية والأطفال الذين يدورون ببضاعة تافهة من أكياس النايلون واللبان، والفتى ماسح الأحذية الوحيد الذي لا ينافسه ماسح آخر في منطقته.

بمزاج أرستقراطي موروث تنصب ولاية المدينة، هي البسيطة الساخرة، ذراعاها أشد نحولاً من أن تناسبهما القيود، تمتد فارعة بانحناءاتها الماكرة، تلتف شوارعها، تتكور المآذن مرضعة أبناءها أحلامهم السرية، تحت صخب نهارها نفق قديم من النقمة الصامتة، حفرته الديدان البشرية لعقود طويلة فتحت كل رجل متسلط نفق غادر يتساوى في هذا الأزواج القساة والولاة الأثرياء، وهو الدودة التي تلبس زياً رسمياً مجبر على بدء نهار عمله هذا بملاحقة دودة أخرى.

ـ أي لعنة هذه؟ شتم لاهثاً خلف بائع الأحزمة الجلدية الذي قرر الوالي من شرفته أن وجوده يخرب منظر السوق وأمر بإلقاء القبض عليه ومصادرة بضاعته.

Tele: @Arab_Books

لم تكن المرة الأولى التي يلاحق بها يامن البائع ذاته، هرول بأقصى سرعته وبدا مع المائة حزام بكلتا يديه كأخطبوط ضخم وغريب، خرج الحلواني الذي ساهمت عائلته في بناء المدينة وبائع الأقمشة الذي أقام جد جده السوق العتيق، خرجا ليشجعا الفتى الملاحق، حتى باعة البسطات المتوارين بعيداً عن عيني الوالي ظهروا.

تملك يامن شعور بأنه منبوذ بمهنته، لا مكان له، هذا الشارع وهذا السوق ملك لبائع الأحزمة وللحلواني والقماش والمجنون قرب الباب الضخم والوالي جاء من مدينة أخرى فارضاً عنجهيته عليهم.

فقد رغبته في القبض على الشاب، فقد رغبته في ملاحقته وكره لأول مرة كونه شرطياً فأبطأ من سرعته، مانحاً إياه حيزاً للفرار، لكنه استدار بغتة راكضاً باتجاه مبنى الشرطة الذي أصبح قريباً منه وبقفزة واحدة دخل من الباب المفتوح على تثاؤب أبدي، تبعه شاعراً بأنه تعرض لخديعة بسبب طيبته، مصمماً على إتمام مهمته بالقبض على العدّاء الشقي الذي صعد الدرج بسرعة، وصل السطح وأقفل الباب خلفه من الداخل.

ـ ما هي خططك؟ سأله محدقاً بالحديد الموصد على سطح وسماء بلا نهاية.

ـ سأنتحر. أجاب الشاب من سمائه التي اقتنصها.

ـ لِمَ لم تهرب؟ طرح السؤال ملصقاً أذنه بالباب.

ـ لقد مللت، قالها كقرار لا رجعة به.

نزل الدرج ليخبر زملاءه، وفي الشارع تجمهر الناس محدقين في

Tele: @Arab_Books

السطح الذي وقف على شفيره رجل يتأرجح بيد واحدة تشبثت بالصاري الضخم لعلم الوطن.

استند يامن إلى جدار وأشعل سيجارة مراقباً المشهد.

ـ بعد خمس دقائق إن لم يحدثني الوالي سأقفز، صرح البهلوان أمام كاميرات الهواتف النقالة التي وثقت المشهد منذ بدأت المطاردة، كتم الجمع أنفاسه بانتظار ما سيحدث وسمع صوت ماسح الأحذية الصغير منبهراً: سأمسح حذاءه مجاناً حين ينزل، قال وهو يكتشف السماء لأول مرة وينظر للأعلى لأول مرة أيضاً يخامره الظن بأن حذاء بائع الأحزمة الشجاع قد تعفر بالغبار الأزرق.

ـ ارجع يا بني، زأر مكبر الصوت.

ـ من أنت؟ جاهد الفتى في الصراخ.

ـ قائد الشرطة.

ـ الوالي.. أريد الوالي، واهتز كمن استسلم لمنحدر الانتحار.

ـ أنا الوالي، زأر المكبر مجدداً.

ـ هل هو الوالي؟ سأل المعلق بالصاري الحشد.

ـ إنه هو هو.. الوالي، أجابته الحناجر مؤكدة فتراجع إلى حافة السطح وجلس مدلياً قدميه.

ـ انزل الآن، أمره الرجل الممتلئ ببدلته الأنيقة.

ـ تعهد أمام الناس جميعاً بأني لن أسجن وبضاعتي لن تمس وسأنزل حالاً.

Tele: @Arab_Books

تعالت موجة من الهمهمة وصفق الحلواني مفتتحاً موجة من التصفيق المتمرد.

ـ أتعهد بأنك حر، تبيع في السوق دون أن يعترضك شرطي، قالت البدلة الأنيقة بعد أن هدأ التصفيق، قالتها بقرف المسيطر حين يهزم، دخلت البناء وتبعتها بدلات أقل أناقة.

ـ انتهى العرض، همس يامن لنفسه متوارياً في زحام الناس.

* * *

في المدينة المنسية حيث نفي يامن لتساهله في اعتقال بائع الأحزمة وتسببه بالإحراج لجهاز الشرطة والوالي، التقى توأمه نوار، لطالما تمنيا البقاء معاً، لكن أن يتحقق ما أراداه بهذه الطريقة فهذا ما لم يكن ضمن مخططاتهما.

بعد التحقيق معه تلقى العقوبة كمن يتلقى هبة مفاجئة، استمتع بمشاهدة المطاردة كما وثقتها العدسات، المقطع الذي اعتبره قائد الشرطة دليل اتهامه وعرضه عليه قبل أن يعطيه ورقة نقله اعتبره هو دليل رشاقته ووسامته.

طوى القصاصة ووضعها في جيبه مغادراً البناء القبيح، مر من السوق المكتظ تحركه رغبة صغيرة في رؤية الشقي، تحرر من كونه تابعاً للوالي سار بين الناس خفيفاً كمن حشي غيمة، كل ما به كان حراً وسعيداً، سار إلى الأمام، أراد وداع المحلات والحمام التركي في نهاية أحد الأزقة.

ـ ياما.. ياما، استدار ناحية الصوت الذي نادى اسمه محرفاً وأدرك

Tele: @Arab_Books

أنه لم يكن المعني حين أشارت الفتاة التي أمامه لمن ناداها لينتظر، أعادت كاميرتها إلى عينيها دون أن تلاحظ أن خلفها من أخذ بها.

طويلة وشديدة النحول حتى ليظنها الرائي شاباً غضاً لولا ضفيرة قصيرة تتأرجح على عنقها ونتوأين طفلين يرفعان صدر قميصها قليلاً، ببشرة سمراء صافية ووجنتين بارزتين.

التقطت صوراً عديدة للمكان كمن يودعه، ثم انتهت بتنهيدة واستدارت منهية تأمله، علق شيء منها به وكأنها مرت من خلاله وليس قربه.

طوال الطريق إلى قريته استعادها سراً وحين وصل البيت وفي فوضى وداعه لأمه ووالده نسيها، جمع حاجياته في حقيبتين، لم تتسعا لحنينه، الحنين ثقل زائد، لا يمكنه السفر إلى أقصى الوطن وعلى ظهره بيته وقريته ووالداه، السلاحف مخلوقات مقيدة بالحنين، تحمل كل ما تحبه على ظهرها، إنه مريض بالمكان كسلحفاة بلا قوقعة، كائن بلا جناحين يعيداه متى رغب.

كائن أرضي جداً لم تتجاوز قدماه مساحة القرية والمدينة المجاورة يجد نفسه اليوم محشواً بالغيوم والحزن، وفي الطرف الآخر ينتظره نصفه الذي استحوذ على الجناحين والخيال.

الغيوم بلا انتماء تسير بأمر الريح، يسلّم أمره لمزاجها مخفياً عينيه بيده، لا يريد إدراك المسافة التي تفصله عن كل ما اعتاده، يترك لأفكاره أن تنساب وتدهشه وكأنها لا تنتمي له، لاحت بينها الفتاة

Tele: @Arab_Books

التي تستعيض عن عينيها بعدسة كاميرا، ياما، ياما.. كرر اسمها منتبهاً أنه الكلمة الوسطى في العبارة الأبدية لجميع الحكواتية.

كان ياما كان، شعر بأن مصادفتها لم تكن سوى إشارة لقدره، قدره حكاية تبدأ من وسطها.

* * *

في بحثه عن بيت يجنبه ثقل المبيت في مركز شرطة المدينة المنسية لامس طبقة الطيبة الصامتة التي غلفت جدران سكانها الأصليين، كان هذا أول احتكاك معهم، حصل على منزل صغير منعزل نوعاً ما بنوافذ كبيرة تطل إحداها على جامع مبني بحجارة عتيقة وطين شاحب، لغرفته الوحيدة وصالته الضيقة رائحة خشب محترق ما لبث أن اعتادها.

في زيارة نوار الأولى له ظن أن شقيقه نسي طبيخاً على الموقد فاحترق، لكن يامن أخبره أنه اكترى البيت مع رائحته ونوافذه والسجادة الخضراء التي تكسو الأرضية بأجر زهيد أغراه بقبول الرائحة على أنها أحد أثاثه.

عاش نوار في معسكر لجيش السلطان كجندي مؤقت، لم يشعر يوماً بالغربة فالخيال يجعلها مستحيلة، حاول نقل مخيلته إلى شقيقه لكن هذا تشبث بالأرض وكأن قدميه جذر زيتون قديم، كل ما بحياة نوار تجارب مؤقتة تستحق أن تعاش حتى بألمها، لكن هناك ليالي احتاج بها لشقيقه، اشتاق لنصفه الذي عوضه عن جميع الصداقات وتخيل معجزة تأتي به إلى هنا أو تعيده هو إلى القرية، لطالما هدأه الخيال ونجاه من الأرق.

Tele: @Arab_Books

هناك ألف حيلة للنجاة من مصائد الحنين جربها كلها واختار خيالات الوهم.

اليوم في وقفته أمام نصفه قبل أذان المغرب بقليل، رائحة الخشب تنفذ إلى روحه، يكاد يسمع هسيس النار التي ولدتها منذ وجد البيت ثم صوت المؤذن يعلو إلى السماء وينهمر على الأرض، يخرج الرجال للصلاة ويسمع صوت الأبواب تغلق خلفهم، انسحبت الشمس عن المنزل وبقي دفئوا الممتع، ابيضَّ الحد الفاصل بين الوهم والواقع لدرجة التلاشي، تملكته سعادة غريبة فاندفع مجدداً وعانقه بطفولة.

بات ليلتها عنده وراودته الأحلام السرية مجدداً، رأى السلطان يتدلى من أنشوطة معلقة بالسماء، وشاهد صديقه عازف العود المسمى عبد الله محاطاً بوجوه رمادية، اقترب من المشنقة، أراد التأكد من وجه الرجل المعلق، لكن ملامح الميت تلاشت وتحولت لملامح يعرفها جيداً، ملامح اعتاد ملاقاتها كل صباح في مرآة الحمام وفي وجه توأمه، كان هو أو ربما يامن معلقاً بحبل من مسد وجميع الحشد المراقب حمل حطباً رائحة ناره تعشش قبل احتراقه منذ سنوات في منزل قديم.

* * *

فاصلة بيضاء بين الفجر والصباح تغفو بها جميع الكائنات ويصحو الله بأفكار غير منتظمة، في هذا الوقت تحدث الأفعال الحرة جداً ويوافق القدير على تحقيق الأمنيات المستحيلة، بالنسبة للتوأمين كان

Tele: @Arab_Books

اللقاء في هذه المدينة هو الأمنية الصعبة، لكنهما التقيا، أحدهما قذف بأمنيته حين استيقظ ليشرب ماء ونسيها كطلب على مكتب مسؤول.

في المدينة المنسية في البيت الذي يضوع برائحة الحريق أمضى نوار إجازته لأول مرة منذ التحاقه بجيش السلطان.

لم يكن ليبذر إجازته في المكان ذاته، لقد اعتاد السفر إلى القرية في كل فرصة تسنح له، لكن يامن استبقاه هذه المرة بحجة الطرق التي فخخت بفظائع المتمردين.

اليوم هو الخميس، منذ المساء تبدأ استراحة الناس وتنهمك المقاهي على كتف النهر المغوي كثعبان فضي بالعمل، قررا نقل حاجيات نوار إلى المنزل وخططا للسهر في المقهى الذي يعزف به عبد الله صديقه وابن البلد الوحيد الذي يعرفه وسيعرفه على يامن.

رتبا الكتب في إحدى الزوايا وكانت هي كل ممتلكات نوار، وماذا يحتاج الإنسان خارج بيته؟ كتاب يغيب به عما يحيطه ورفقة تعوّضه عن فقدان ما اعتاده منذ طفولته.

لم يمهل قانون الوطن نوار ليعمل بما درسه، وجب أن يخدمه لعامين كجندي وبعدها سيسمح له بممارسة مهنته التي يحب، الصحافة كانت ما يحب ويريد ويتمنى، بقي عام ويطلق سراحه ويعود من منفاه ليبدأ حياته التي خطط لها، بينما اختار يامن أن يكون شرطياً دائماً، لم يتح له الفقر الكثير من الخيارات، لذا وجب على أحدهما العمل لينفق على الآخر، اختار يامن الشرطة لأنها توفر عملاً سريعاً مختصر الدراسة، وهكذا غدا هو الكبير بينما منحت التلمذة لشقيقه صفة الصغير.

Tele: @Arab_Books

معاً في المدينة ذاتها التي أغفلها السلطان وصنفت كمنفى لسيئي الحظ ومستحقي غضبه معاً اكتشفا أنها أجمل مدن الوطن وأغناها.

لما أخفاها السلطان تحت إشاعة المنفى البعيد المقفر! لم تكن مقفرة والنهر زادها غنى، لم يكن أناسها أجلافاً بل قبائل أصيلة توارثت المهن والزراعات، القصص والأساطير، الأغاني والقصائد والقوانين الأبدية والنساء حاضرات في كل مكان حرات كأشجار النخيل المنتصبة في كل زاوية.

في الصباح الباكر شربا قهوتهما معاً وغادر يامن إلى عمله بينما انهمك نوار في تنظيف المنزل من دون المساس برائحته.

تمددت أعصاب يامن متخلياً عن التوتر الذي لازمه حتى التقى شقيقه، تنشق الهواء بمسامات وجهه ويديه وجالت عيناه متعرفة على الملامح المنبسطة للطريق كأنه يراها لأول مرة، مر قرب المسجد العتيق ورفع رأسه ملقياً التحية على مئذنته شاعراً بالامتنان الذي يغمره حين يصافح كبار السن، ربما وجد المسجد قبل المدينة! ربما كان الجد الحقيقي للبيوت والنهر!.

بإحساس جديد وبعينين جديدتين عاش ساعات ذاك الخميس وحين بلغ نهايته وجب عليه استعادته لحظة بلحظة ففي ردن صباحه التقاها لأول مرة مفتتحاً حكايته التي تنبأ بها وهو محشو بالغيوم القدرية حين حطت به هنا.

* * *

عند الساعة العاشرة صباحاً انهمك الشرطيان اللذان يرافقانه في الجولة الدركية اليومية على السوق، انهمكا بفض العراك الناشب بين

Tele: @Arab_Books

صاحب الفرن والصبي المراهق الذي بسط بضاعته قرب شباك بيع الخبز، بينما تابع سيره بين المحال المتنوعة متشمماً الرائحة النفاذة للسوق، النسيج الحلو الذي يمتزج ويلتف غلالة ملونة على جسد الهواء.

التوابل والعطور الرخيصة، الأقمشة الجديدة والنباتات الطازجة وأسماك النهر غلة الفجر اختلطت جميع روائحها برائحة الأرض الحارة حين تنهدت بزفرة طويلة.

مشى محتفظاً بالسعادة التي استيقظ بها، منحه بائع التمور خمس ثمرات عسلية وابتسم راداً على تحية الصباح التي ألقاها، وهو يهم بالتهام آخر حبة التقط رائحة يحبها، فصلها عن باقي الروائح، أمسك الخيط الشذي، سحبه، أراد تذكر متى عرف هذه الرائحة وأحبها ولما فقدها ثم لما ظهرت هنا في هذا الصباح الذي سلم به أمره لحواسه؟

أكانت موجودة دائماً وحواسه هي ما كانت معطلة أو مشوشة؟

انقطع الخيط وبقي جزء منه في كفه المتعرقة، وجدها هناك حيث فقد الشذا قرب دكان يعرض صناديق خشبية.

وقفت تحدث بضعة سياح أجانب، اقترب ليصغي يقوده فضول لايقهر، منجذباً للصوت النشيط الذي يتحدث لغة لا يفهمها، دخلت المحل مع مجموعتها وبقي واقفاً بباب المتجر الملاصق قرب مائة شال ملون تدلت من خطافات كدعوة للحياة.

بدت أكثر غرابة بين القامات الطويلة للأجانب والصناديق المزخرفة، ساومت البائع باللهجة المحلية ونقلت الأسعار بلغتهم مرفقة حديثها بإيماءات من عينيها العشبيتين.

Tele: @Arab_Books

مراقبتها أمتع ما فعله منذ وصل المدينة المنسية، تأكد من هذا وهو يتابعها كعدسة كاميرا لا هدف لها سوى القامة الدقيقة القصيرة والنظرة المموهة لبؤبؤيها كأن في داخلهما حركة موج معشب لا تتوقف التيارات عن تحريكه.

البشرة الداكنة الناعمة كخشب مصقول والشعر البني المجموع في ضفيرة طويلة غرزت بها صاحبتها خرزاً ملوناً.

خرجت جارة مجموعة المسنين المأخوذين بدليلهم الفاتن وحين أصبحت قريبة منه لدرجة مكنته من سماع احتكاك ضفيرتها بثيابها ورؤية قرطها الطويل المتدلي من محارتي أذنيها بمحاولة لاهثة للمس كتفيها، عندها التفتت إليه وقالت: صباح الخير.

لم تبدُ كمن تريد اصطياد رجل بل كمن عاشت بنبوءة مستعدة لتحقيقها حين يحين الوقت، كمن تلقت إشارة بأن الوقت قد أزف، بأن الرجل المأخوذ بها كممسوس سيفهم ما تريد، لن يخطئ بمعرفتها من بين مئات الأجساد المستيقظة برغبات دافئة، بأنه جاء لأجلها وبأنها يجب أن تشجعه وتدله قبل أن يتوه بحماقة غريب.

تحسس صدره وأخبره كفه بأنه فقد الزر الذي لجيب سترته وقلبه وهذا الأخير انضم لمجموعة السياح كأخرق وسيسير خلف الضفيرة والعشب حتى يصل طمأنينته.

غابت في الزحام، تابعها بعينيه حتى اختفى أطول أفراد مجموعتها.

عاد أدراجه وحيداً لكن النار لم تفارقه، برأس محموم سار حتى بائع التمور.

Tele: @Arab_Books

ـ كأس ماء، طلب.

وضع له كرسياً قربه وأجلسه، شرب الماء بذهول، فكر بأنها دليل سياحي من البلد وأنها حتماً سترافق السياح في جولة على الأسواق وتعيدهم للفندق وسيكون أقرب الفنادق وأكثرها شهرة، البحث عنها هو الجنون والتعقل الوحيد كان قمعه لرغبته بسؤال بائع التمر عنها، مسح وجهه بكفه وانتبه إلى الرجل الذي يبتسم له بأسنان ذهبية كاملة.

ـ ماذا سأفعل؟ سأل نفسه بصوت مسموع.

ـ اذهب بطريقك الذي يريده لك القدر، أجابه البائع ظاناً أنه يسأله.

نهض وتابع سيره، لم يدرج الانتظار ضمن مخططه المرتجل، فهو المأخوذ بحكايات شقيقه اعتبر دائماً أن الانتظار المشحون باللهفة هو الجزء الغبي في كل رواية كتبت عن الحب، لذا وعند الظهيرة كان الشرطي المدعو يامن يجلس في بهو الفندق متخذاً لنفسه طاولة تمكنه من مراقبة كل من يخرج أو يدخل، بينما بدأ برشف فنجان قهوته الخامس دخلت مجموعة تعرف بها على من كانت ترافقهم فتاته، لم تكن بينهم على أي حال، بحث عنها بعينيه، ثم حاول السؤال من دون أن يتوصل لجعلهم يفهمون إشاراته ولغته، هزوا رؤوسهم بتعاطف لكن من دون جواب.

داهمه البرد وشعر بأنه عار ومحرج أمام الأعين التي استظرفت النكتة، خرج من الباب الزجاجي، مشى حتى الشارع وفتر التوقد النادر الذي استيقظ به، هزأ من كل ما ظنه وفعله.

ـ غبي وأحمق، أنّب نفسه بقسوة، ثم عادت الرائحة المشاكسة

Tele: @Arab_Books

تخترق حواسه، تمسك كفه كيد طفل منبه إياه: انظر هناك، إنها هناك.

ـ مرحباً، ابتسمت مقتربة منه، ضحك بصوت مسموع وقبل أن يتحول ضحكه إلى قهقهة فاضحة دسّت بيده ورقة مطوية وزر بدلته المقطوع، حملها الشذى وتبددت.

* * *

سآتيك ذات فجر
دع الباب موارباً.. فم في الجدار يفتر عن روح قلقة
سآتيك ذات فجر
حين ستبدأ المآذن تنوح بصوت واحد
نساء شامخات في عويلهن
لقد فقدن عزيزاً
وفقدن أقدامهن في تربة الغرور
لن يسرن خلفه
لكني سأسير إليك
متحدية نواحهن
سآتيك عند الفجر
لأجلي أنا فقط
دع الباب موارباً

* * *

Tele: @Arab_Books

يخرج القصاصة من جيبه، يقرأها فتبدو له وعداً، يدسها في مخبئها وبعد دقائق يعيد قراءتها فيجدها قد تلونت بحزن بارد كأن صاحبتها قد غادرت هذا العالم.

باح لنوار بحكايته، لم يقوَ على مخابرتها، الأرقام التي ذيلت الصفحة إصبع لعوب تشير بأن تعال والمقطوعة تهسهس بالانتظار، ليلهي نفسه عن قلقها سلّم قياده لشقيقه تلك الليلة ورافقه إلى المقهى على النهر حيث يعزف عبد الله، على الطريق الذي قطعاه سيراً تتوسطهما عتمة تأبط نوار ذراع الكلمة وروى عن صاحبه العواد:

ذات يوم بعيد منذ عام لكنه أبعد من عام مررت قرب أحد الأفران وكانت المشادة قد فضت وبدأ الناس يعودون إلى أماكنهم على شباكه، بينما تجمع ثلاثة رجال عرفتهم فور التقطتهم عيناي يحيطون بشاب طويل داكن الشعر والبشرة، اقتربت لأفهم ما يجعل رفاق المعسكر يجرونه إلى سيارتهم وفهمت بأنه بعد أن اكتمل الدور على الفرن وبدأ الفران بتوزيع الخبز جاؤوا وتقدموا الصف مقتحمين نظامه، عسكر.. عسكر، صرخوا بخشونة ودفعوا المنتظرين منذ الصباح الباكر، ما أثار حفيظة الشاب وتهامسهم المستنكر.

ربما هو من ذاك النوع الذي لا يعرف الهمس سوى في الحب، الغضب لا يستدعي الهمس والصمت عندها يورث الحرقة لذا صرخ بكل غضبه فجروه لتأديبه.

وقفت بينهم محاولاً تهدئتهم، نظرت إلى وجهه وعرفته، كم من السهرات ستفسد إن اعتقل، الموسيقا والليالي الجميلة مبرر جدير للتدخل، خلصته منهم مستعيناً بزمالة المعسكر.

Tele: @Arab_Books

وبعد أن مضوا عاد مثير الشغب لطابور الخبز ومن بعيد حيّاني بابتسامة باهتة، ناكر للجميل قلت لنفسي لكني لم أستطع تخيل المقهى من دون عزفه، في السهرات اللاحقة تعارفنا وأصبحنا صديقين، إنه قليل الكلام لكنه ينحدر من صلب أمير أكبر القبائل هنا، إنه أمير حقيقي.

أنهى نوار حكايته وكانت أقدامهما تطأ طمياً جافاً ولاحت أنوار المقاهي المتناثرة على كتف النهر كدعوة سرية من عشرات العيون المضيئة، أشاعت في نفس يامن حنيناً غامضاً لزمن مقتطع من ذاكرته وسأل نظره: متى عشنا هنا، فقد بدا المقهى أليفاً كقطعة من أمتع أحلامه.

جلسا على طاولة خشبية وخارج الحجر القديم طاف الصمت متحسساً النوافذ الباردة مراقباً رواد المجلس، محدقا في عدوه اللدود الذي افتتح السهرة بوقع لحن بدوي على عوده، إنه من طائفة اعتادت محاربة الصمت وضمت بين صفوفها منذ وجد للإنسان أذنين، النساء والغجر والموسيقيين والحكواتية.

لم يعر المنصتون للغريبين أي انتباه، وحين وصل العازف إلى منتصف اللحن نادى رجل: حلفتك بوالدك أن تغني، من دون أن يرفع عينيه وبما يشبه الابتسامة رسمها على وجهه انطلق الصوت الرجولي بلهجة بدوية، حباً وشموخاً كرقصة منفردة على كثيب رملي: (طعن الخناجر ولا حكم النذل فيا).

فقدت القهوة لونها ورائحتها وتلاشى المكان مخلياً المدى للكرسي الخشبي والصوت الآسر، تساقط الليل على النهر، لم تكن

Tele: @Arab_Books

الكلمات سوى إعلان للأحلام الممنوعة، لتاريخ مدفون تحت خوف متوارث.

تحرك النادل العجوز، أغلق النوافذ المفتوحة على الماء، جمعوا النضد في الوسط والتفت الكراسي حولها، نزل العواد عن كرسيه.

مسرح مرتجل والجميع مؤدٍ والنص هو الأحلام.

فلتبح أنت أولاً أيها الغريب.

ـ أحلم بامرأة عينيها بلون العشب وبالخرائب القديمة.

ـ أحلم بالسلطان معلقاً والبارحة كان له وجهي.

ـ أحلم بالنهر يضاجعني كأنثى لعوب ثم يلتهمني الطمي الشبق.

ـ أحلم برغيف خبز يكفيني أنا وكل المدينة وكلما تناقص ازداد.

ـ أحلم بالعسكر وقد قتلوا جميعاً.

ارتعد يامن لكن اللعبة استمرت حتى انتصف الليل وأعلن النادل نهايتها بأن فتح الباب وشرع النوافذ، خرجوا من دون أن ينظروا في وجوه بعضهم بعضاً، ارتدوا أقنعتهم، سار عبد الله بين رفيقيه كظل صامت، وكان حلمه صحو حقيقي.

* * *

تشاركا الرحم ذاته في الوقت ذاته ولم يصب تلازمهما لاحقاً أي منهما بالسأم، متشابهان حد التطابق، القامة القصيرة ذاتها والوجه الشاحب والملامح الضجرة، يبدو نوار ألطف بينما يوحي يامن لمن يعرفه بالثقة، في الطفولة صعب تمييزهما لكن الرجولة منحت لكل

Tele: @Arab_Books

منهما ملامح جديدة، أمر عزاه نوار إلى أنهما يملكان روحين مختلفتين والروح هي من تمنح الشكل للمادة كما يقول فيلسوفه المفضل.

بعد أسبوعين من سهرة الخميس الغريبة عاد نوار لزيارة شقيقه، بقليل من الانتباه لاحظ اضطراب روحه الذي منح لعينيه ألق نجمين نابضين، كان عاشقاً مقيداً بتعويذة سوداء أوقعته في الحزن والريبة.

قص لنوار حكايته، لقد عرفها في السوق القريب، هي المرأة التي يراها في حلمه تلك التي تنفصل عن حجر الجدار كل ليلة وتأتيه كل فجر، تقص له الحكايات، تمنحه كجنية مفاتيح أسرارها وما إن تبدأ مئذنة المسجد القريب دعوتها للصلاة، ترتدي خمارها الأسود، مقدرة من إغلاق أبواب البيوت أن الجميع غادر للسجود، تختفي من باب موارب لا صوت لقدميها على الأرض، لا حفيف لثوبها، بلا أساور تحرك الشك، تاركة إياه مبللاً بالدهشة.

لم تأت البارحة ولم ينم، انتظرها دون جدوى، خابرها لكنها لم تجب.

مشغولاً بالانتظار تركه نوار وحيداً وسار إلى مقهاه، عزم على تدبّر أمره ليبقى لما بعد الفجر فربما تأتي الجنية لموعدها وقد يمنعها وجوده من البقاء.

غطس في الفضول وتناثرت الأسئلة سمكاً ذهبياً صغيراً، عرف المدينة كقصر ألغاز، استمتع وهو يدخل غرفه إلا نساءها تجنبهن، كانت لديه حبيبة بعيدة منعته ذكرى ابتسامتها وخشيته من الغريبات اللواتي سمع أن معظمهن ملمات بالسحر عن فتح باب الغرفة الممنوعة.

Tele: @Arab_Books

كان ياما كان هناك فتاة عشقت وحشاً طيباً وسكنت في قصره وكلما سافر قال لها إن جميع غرف المكان لها إلا الغرفة الممنوعة، تسلت بفتح الحجرات التي منحتها كل واحدة كنزاً مختلفاً وتجنّبت الغرفة المحظورة زمناً طويلاً إلى أن انتصر فضولها وفتحتها وعندها حدث أمر سيئ، احترقت دهشتها وفقدت القصر وحبيبها.

لقد خشي نوار من الأسئلة التي تركها يامن، خشي من أن يجد جواباً يكون به نهاية السحر الجميل الذي أراده شقيقه أبدياً، باقي غرف القصر كانت قد غدت ملكه وكانت إحداها ما يحدث في المقهى كل ليلة خميس.

تذكر الرجل صاحب الحلم الذي يقتل به كل العسكر وحلمه هو، ربط بين الرؤيتين، هل تنعكس الصورة في مرآة الواقع لحظة يحين الوقت؟ هاهو حلم شقيقه يتحقق، ما الذي يمنع باقي الأحلام من التحقق!.

هل سيحسب هو وجهاً للسلطان ويقتل في لبس رهيب؟

دخل السؤال روحه منغرزاً بها، تمنى لو يعود أدراجه، لو يتراجع عن سهرته، لكن الطمي تحت قدميه أغواه كذراع حورية ناعمة لعوب وقاده إلى الباب المفتوح.

رأى نفسه يغطس في النهر هرباً، هو الذي لطالما قصد الماء للمتعة وجميع الموجودات التي تصلح للمتعة تصلح للهرب تتساوى في هذا النساء مع الأنهار.

* * *

Tele: @Arab_Books

ـ انظر هذا النجم إن اسمه العناق، لا أدري لما له هذا اللقب؟ يبدو أن من اكتشفه كان امرأة، ربما على كثيب رمل في الصحراء المجاورة للنهر وهي تعانق حبيبها، في اللحظة التي غطاها بها نظرت إلى السماء شاكرة ورأت نجماً يراقب توحدهما، سمّته (عناق).

ـ وهذا النجم النابض كقلب قلق؟

ـ ليس نجماً واحداً إنهما توأمان، أحدهما يختبئ خلف ظهر الآخر فيبدو بخدعة المسافة لعينيك نجماً نابضاً، مثلك أنت وشقيقك في السماء أيضاً توائم نجمية.

كان قد بدأ يخاف اختفاءها منذ غابت لأسبوع كامل، تحت عينيه هالتان داكنتان هما الإرث الوحيد الذي خلفه على ملامحه القلق، ترك الباب مواربا لأجلها أسبوعاً كاملاً ولم تأت، في هذه الليلة المضاءة بالنجوم غفا على الأريكة، دخلت بصمت متسللة على رؤوس أصابع قدميها ووقفت قرب النائم، بدا متعباً حتى في نومه، أيقظته بيدها ماسحة وجهه، عيناها الطيبتان غفرتا غيابها، لقد حضرت بكل سحرها وغموضها ولم يكن يريدها أن تغادر مجدداً.

بينما كانت تلعب معه لعبة عد النجوم سألها: هل ستبقين معي؟ صمتت، أغلقت النافذة المفتوحة على سماء صيفية مضاءة بملايين القناديل التي بدا أنها تملك حكايات على عددها.

عانقته وعندما غطاها نظرت إلى سقف الغرفة الأعمى، النجوم للرعاة والغجر، للشعراء والمنشدين، للمتعانقين دون خوف، النجوم

Tele: @Arab_Books

للجميع إلا هي، وهي تريد نجماً واحداً يشهد على امتزاجهما، تريد امتلاكه تحت أعين الكون.

ـ ابقي، تزوجيني.

ـ لماذا اخترتني؟

ـ لم أخترك وإنما كنت أبحث عنك.

تنهدت وتعالى أذان الفجر، صفقت الأبواب بوجه النوم، شدها إلى صدره حين أرادت النهوض، لم تنتبه أنه هذه المرة أقفل الباب حين دخلت.

خفق قلبها بعنف، تحدّى نداء المئذنة، تحدّى الحزن الذي ازداد سماكة في كل مرة غادرته.

جاء الصباح ولم ترحل وكان هناك عصفور رمادي وقف على إفريز النافذة ينظف ريشه بمنقاره المشاكس.

هي هنا للأبد بلا نجوم تشهد، وبلا مباركة القبيلة والنهر، أعلن العصفور ورائحة الخشب المحترق أنهما زوجان حتى ينتهي الزمان.

* * *

كيف تبدأ نهارك مع امرأة خائفة؟ تفتح عينيك وتباغتك الأسئلة، حشرات تسير على مخدتك وتزعج بياضها.

تريد الرحيل عما بدأتماه ليلة أمس، تريد الرحيل، العودة لأهلها وتركه.

تقول إأنها ستهيئ الطريق له وسيأتي كخاطب عادي.

Tele: @Arab_Books

تترك خمارها وتخرج مثلما رآها أول مرة بضفيرة بنية ووجه مشع تاركة بابه مفتراً عن ظلام الغيب.

خرجت إلى الشارع، لم تندم كما ظن هو، أرادت فقط الحصول على شرعية لعناقهما، أرادت التخلص من كونها هاربة، لم يعنها كثيراً أن تكون آثمة طالما لم يرَ عريها الأسمر الشره لحظة سال كدبس عنب دافئ سوى سقف الغرفة وأصابعه.

تجولت في الشوارع واشترت رغيفاً قضمته بتمهل وهي تسير إلى عملها، ضبطت اضطرابها ولم تبح لبشر بسرها، وحين عادت للبيت أجابت ببراءة أنها استيقظت باكراً لتودع السياح الذين رافقتهم في كل جولاتهم، فاجأتها تلك القدرة على التمويه والكذب حين اكتشفتها في شخصيتها، وخلف ظهرها كان عشقها يختبئ منتظراً فرصة ليصبح بعد مدة موضوعاً للجدل والعراك بينها وبين شقيقيها.

القبيلة والله كانا يمقتان فكرة الزواج من غريب، ذلك لأنهما لا يعرفان متعة الممنوع، هما الشرع والمشرع وكل ما لم يعرف ممنوع، محاولة المعرفة ممنوعة أيضاً.

سيرين ويامن تجاوزا السياج، تبادلا الأحلام، كانت المرأة التي تنفصل عن الجدران وكان الرجل في حلمها ذاك الذي اكتشفت وهو يغطيها نجم (العناق) في حياة ماضية عندما كانت حرة وكان هو راعياً للرمال في الصحراء المترامية بعد ضفاف النهر.

تركته بضعة أيام ينبض بالقلق وخلفه توأمه واضعاً يديه على الكتفين اللتين تنوءان بثقل الانتظار، تبدلت ملامحه وكبر عشر سنوات، تغيّر البيت وبردت رائحة الخشب المحترق التي سكنته قبل

Tele: @Arab_Books

أن يسكنه، لا شيء منها يثبت أنها حقيقة وليست جنية بئر متخيلة سوى خمار طويل أسود ودبوس شعر نسيته على الكوميدينو قرب السرير.

سحبت شذاها الحلو ومسحت نقاط الدبس الذي تعرقته مسامها وأغرق حواسه بارتباك اللهفة.

مضى الوقت بطيئاً متعباً وصعباً كصعود درج طويل ملتف وفي النهاية حين قرر أنه انتهى من الصبر والترقب جمع يأسه كرأس سهم وألقى نفسه في طريق بيتها كما دلته ذات يوم تحسباً لما قد يحدث، طرق الباب وقبل أن يفكر بما فعله فتح، نظر إلى العملاق الذي حشرت قامته في الفراغ مغلقة الطريق لعينيه اللتين حاولتا الدخول قبله.

ـ يامن، قال بجرأة معرفاً عن نفسه.

ـ تفضل، أفسح له العملاق ليدخل.

في صالة البيت الواسعة جلس، خمسة أبواب خلف أحدها تختفي سيرين، خطوتان وقليل من الجنون كل ما يلزم ليفتح أحدها ويحتضنها، بحدسه الذي شحذه الترقب والقلق حزر أنها في الغرفة التي على يمينه، تمكن من تخيلها منحنية على ثقب المفتاح ملصقة عينها وضفيرتها الطويلة تلامس الأرض كزنبقة تنوء بنداها.

استنشق رسالتها من الشذا كلمة.. كلمة، قالت: لا تخف، ولم يخف، بكل قوة الحب استطاع إقناع شقيقها الأكبر ووالدتها بكونه خطيباً جيداً، كما وعدته كانت قد مهدت الطريق قبل قدومه، وهكذا مثلما تمنى فتح الباب الذي على يمينه حين ناداها شقيقها وخطت باتجاهه كطفلة هشة، حلوة وناعمة.

Tele: @Arab_Books

ـ لقد جاء لأجلك، قالت الأم.

ـ أهلاً، قال صوتها لكن هسيس أساورها هتف بضجيج احتفالي: انتظرتك... انتظرتك.

* * *

في الشهر التالي بعد أن استقرت بين أثاث البيت الصغير مانحة إياه ظلاً ورودياً لم يوجد قبلاً تباعدت زيارات نوار وكأن اللون الوردي لم يناسب مزاجه، لقد بدت الستائر والأريكة الضيقة التي تتسع لشخصين وشتلات الحبق التي صفتها على رف قرب نافذة المطبخ، بدت كعبارة (الرجاء عدم الإزعاج).

أعاد كتبه ومنامته إلى معسكره مستسلماً لطغيان الاستقرار الذي اجتاح منزل شقيقه.

استلمت مهامها كزوجة كما تخيلت قبلاً وآمنت بأنه سيحصل منذ عانقته أول مرة، وحين استيقظت صباح عرسها تفحصت ثقتها بحبه وهالها استسلامها التام لهذه الثقة، فماذا لو لم يأت وأخطأ حدسها؟ فكرت لبرهة وبدت الفكرة مستحيلة فها هو قربها إلى الأبد، سار كل شيء بسلام، لكنها وطنت نفسها على توقع المفاجآت، الثقة المطلقة بقدر سهل ورحيم هاوية تغوي الحالمين وهي العلة الملاصقة للاستقرار، تتحول إلى نوع من الاستسلام المتكاسل، درس تعلمته من مدينتها النائمة منذ عقود، المستسلمة لقدر مستقر استقرار الغياب الذي لمرضى (الكوما).

الفقر مستقر والظلم مستقر والجهل مستقر، كل سوء مستقر، لا

Tele: @Arab_Books

تحرك الركود فقد يسوء الأمر أكثر، لا تخاطر بالتغيير فقد يكون التغيير انتقالاً للموت.

لقد خاطرت وقفزت عن طباع قبيلتها، لم تكن تريد لحياتها أن تتشابه مع حيوات أناسها المتشابهين، أحبت غريباً وحبها سمكة تسبح في النهر على مزاجها المعاكس للتيار والنهر عظيم مغوٍ هادر يبتلع الأسرار وعلى ضفافه بيوض أسماك تحمل في جيناتها تمرد عشق منتظرة رعشة شمس لتكسر القشرة.

* * *

وقال له: لنخرج بأنغامك تقودنا كي لا نتوه.

لم تغلق النوافذ كالعادة ولم يجرّوا النضد إلى الوسط، هذه الليلة لم يكن هناك وسط، باحوا بأحلامهم وكانت جميعها متشابهة، خرجوا من المقهى ولم يضعوا هذه المرة أقنعتهم التي يعيشون بها نهاراتهم، وفوق الجمع طافت الأسرار التي لم تعد أسراراً وقادتهم كدخان الحشيش المخدر.

كان بإمكانه الرقص كمجذوب وغرس نصل بكفه من دون أن يراق دمه، ساروا وهتفوا للحلم ورقص كمجذوب، كدرويش ممسوس، رقص للحقيقة التي كانت خيالاً وبجواره سار الأمير عازف العود وحكواتي هتف (يا سادة يا كرام) ومؤدي خيال الظل مع دميتيه والشاعر المصاب بسرطان الرئة.

طافوا في الشوارع واستيقظ النيام، رشوا نثاراً أبيضَ وفرحاً ونزل الرجال لينضموا إليهم.

Tele: @Arab_Books

زغردت النساء من نوافذ بيوتهن وأطل والي المدينة المسكين بمنامته القطنية مرتجفاً، هاله الهدير وكأن النهر غيّر مجراه وانسكب في الشوارع، صرخ بحراسه ليسوّروا القصر ولم يجد أحداً، اختبأ في القبو كجرذ بدين بينما وقفت امرأته في نافذتها العالية مأخوذة بالفتى القصير الذي يسير راقصاً، قدماه لا تمسان الأرض وذراعاه مفرودتان كجناحي طائر يجرّب التحليق لأول مرة وسألت نفسها أين تراها عاشت ذات المشهد الذي يظهر به عود وفتى راقص؟

لم تخف، كل ما تراه عيناها مألوف، عاشته في يوم ما، في كتاب قرأته، هي تعرف أن كل ما كتب قابل للتحقيق أو أنه حصل حقيقة، ما من خيال خالص، وهي تعرف أنها لن تقتل اليوم مع زوجها طالما العود والراقص هما من يتقدما الجموع.

البارحة فقط قرأت لطفلها قصة المزمار السحري حيث سارت الفئران خلف الشاب الذي يوقع لحناً سحرياً على مزماره، وصل بها حتى النهر ورماها.

بعد الليلة سيتنوّع العازفون وسيسير كل خلف اللحن الذي يستهويه، الفئران خلف المزمار والجميلون خلف العود وبعدها خلف الرصاص وربما تدخل المئذنة العجوز أيضاً المنافسة، لا يوجد شرط للعمر في هذا السباق وعندها كما تعرف ستفوز وسيأتي من يستغل طيبتها لشرّه، هذا ما حدث لبلادها منذ عقود وهذا ما سيتكرر ليس الليلة لكن غداً.

أغلقت نافذتها وعادت لسريرها وكأنها تغلق كتاباً تقرأه قبل النوم، هي المخلوق الوحيد الذي عاد ليغفو في المدينة كلها، لم يفتقدها

Tele: @Arab_Books

الوالي الرعديد، في حمى الرعب خابر مركز الشرطة مستنفراً عناصره الذين يبيتون فيه ليقمعوا النهر البشري.

عند مدخل الشارع الذي يقع به منزل يامن وسيرين حصل الصدام.

ـ عصيان مدني، هتف قائد الشرطة في مكبر الصوت.

قهقه عبد الله وهو يشد نوار من يده ليركضا (ليس تماماً معنا عساكر).

ـ اقبضوا على المشاغبين وفرّقوا الجمع بالعصي، ألقى الأمر بأعصاب وحبال صوتية شدت كبدلته المشدودة على كرشه البارز.

ركض وكأن خطواته جزء من رقصه، أقدام تلاحقه وصراخ الذين وقعوا، إلى جانبه عبد الله عملاق وسريع كإعصار، من شارع فرعي فاجأهما ظهور الهراوات والشتائم، حاولا تجنبها، لكن ضربة غادرة شجت رأسه، سقط الراقص من سمائه وهناك من حاول جره، لكن عبد الله خلصه فنهض ولم يعد يشعر سوى بقدميه تطويان الدرب بلا تفكير، سال الدم ودخل عينيه لزجاً كالعمى وهو كخفاش يعلم أين كهفه أدرك أنه وصل، مسح الدم بكمه لكن عينيه ما تزالان مغبشتين، سبق الأقدام التي لاحقته كلعنة رعب واختفى في مدخل البناء، صعد الدرج بخفة هر وطرق الباب.

ـ أنا نوار، أجاب بنفاد صبر على السؤال المرتاب (من؟) وبلحظة تخطى العتبة إلى الصالة الصغيرة.

ـ ادخل.. ادخل، حثّه يامن دافعاً به إلى المطبخ حين عاد الطرق على الباب أشد عنفاً من أن يكون لخائف، إنها الشرطة، فتح

Tele: @Arab_Books

شقيقه مخفياً في كمه مسدسه الحربي وحاملاً في اليد الأخرى بطاقته الشرطية.

- نعتذر، لكن لا تفتح الباب لأحد، إنهم خطرون، سمع نوار من مخبئه في سقيفة المنزل صوت ملاحقه الأجش ثم إغلاق الباب وصوتاً معدنياً للمسدس حين وضعه توأمه على الطاولة، نزل مطمئناً وهناك وقفت سيرين شاحبة تسند بطنها الضخمة بيدها وتحدق به، وعلى هذه الصورة سيراها في مخيلته حين سيستعيد كل من عرف من ذاكرته دون أن يستطيع لقاءهم.

- إنك تنزف، قالت بحزم وهي تناوله منشفة مبللة ليمسح قناع الدم الدبق عن وجهه، مسح جرحه بسرعة، لقد فقد عبد الله، تخلى عنه ونجا دونه، أراد أن يغادر للبحث عن صاحبه وإنقاذه، لكن توأمه سد الباب بذراعيه، وجهاً لوجه بملامح تتشابه حد التطابق راقبت المرأة المشهد، ولأول مرة شعرت بأن هذا النوار جزء من عائلتها، ولأن النساء تسعدهن اللحظات المربكة ابتسمت من دون أن تخفي ابتسامتها.

* * *

(الحرب هي دراما إرادة الله) حدثت نفسها طوال الطريق، مودّعة المناظر الحبيبة للمدينة التي عاشت بها منذ أصبحت زوجة الوالي، في موكب هروبه كانت ضمن متاعه النفيس وبحضنها تكوّر طفلها ذو السبع سنوات، جلست خلف السائق العجوز الذي ما إن لاح حاجز الملتحين حتى بدأ يصلي بتمتمة خافتة، أوقف السيارة حين توقفت

Tele: @Arab_Books

باقي السيارات ونزل اثنان من حراس الوالي الشخصيين ليقنعوا المسلحين بالسماح للعائلة كي تمر.

تساقط مطر هادئ نقط بلور النوافذ الضيقة، أخفضت رأسها واضعة شفتيها على شعر الصغير، المطر يزداد حدة وصوته يجرح روحها، المطر يحطم النوافذ، المطر ينفجر دماً على المقاعد، المطر على شعر الطفل.

ظلام، ما من برق يضيء السماء.

صمت، ما من رعد يخيف الطفل ويجعلها تقول: لا تخف يا ماما هذا جراب الماء الذي لله قد تمزق لينزل المطر.

لا تخف يا ماما، إنه مطر مجرد مطر.

* * *

ـ عد إلى معسكرك، لم يعد بإمكاني حمايتك، لقد تسلموا الشوارع وستندلع الحرب قريباً، لا أريدك محترقاً، توسل عبد الله وكان أميراً ينزل عن عرشه ليعانق فارس فرسانه قبل نفيه.

ـ وأنت؟ سأل نوار.

ـ سأعود لبيتي وأخفي العود، الرجل الذي يحلم بالقتل سيعزف كل ليلة بدلاً مني.

ـ إذاً هو الوداع، اقترب واضعاً يده على كتف صاحبه.

ـ الوداع، قالها الأمير البدوي، مخفياً عينيه النبيلتين.

عاد نوار إلى معسكره، ارتدى زيه المموّه وموّه روحه، أراد

Tele: @Arab_Books

إخفاءها كعود عبد الله، فكر بشقيقه، آلمته كتفاه، لفّهما الألم كوثاق حديدي، وجع ينتابه دائماً كلما مر اسم يامن بخاطره لحين لقائهما.

لقد استعجل عبد الله وداعه كمن يتخلص من حمل، لم يحدث الكثير حتى اليوم سوى اعتقال مؤدي خيال الظل في أحد السجون الغامضة وتكريم الشاعر المريض على شاشة التلفاز، شاهد الحلقة المضحكة، بيت العجوز الذي حشي أثاثاً لم يكن موجوداً به بينما بقيت الجدران بائسة دون طلاء، ما جعله يدرك أن هيئة التلفاز الوطني هي من جلبت الأثاث من أجل التصوير، ملامح العجوز المستسلمة أوصلت رسالة تقول بأنه مجبر على ذلٍ كهذا. وحين صرّح المذيع الأنيق أن السلطان سيتكفل بعلاج الشاعر، شتم بأعلى صوت وتذكر الليالي التي بات بها في حجرة صاحبه البائسة والتبغ والسعال المسيطر على هوائها، تذكر رفضه لأي مساعدة وأنفته الرقيقة بعد نوبات الاختناق التي تنتهي حين تلفظ رئتاه الدم.

لكن كل هذا لا يعدّ عنفاً، هو لن يمر بالمقهى مهما حدث وسيغادر في رأس السنة الذي أصبح قريباً إلى قريته، سيسافر مع رفاق المعسكر في مجموعة ليحموا بعضهم بعضاً، أراد طي الصفحة والانتقال إلى بداية جديدة، لكنه لم يستطع ففي آخر سطر كتبه القدر كلمات غير واضحة.

ولأول مرة منذ وجد له لسان قال: ولتكن مشيئة الله.

لم يطوِ الصفحة ولم يسقط صور مسيره مع أهل المدينة من مخيلته، حتى إنه لم يكن غاضباً من عبد الله، لقد كانت أياماً للصدق والحقيقة، وإن انتصرت خديعة الموت في النهاية.

* * *

Tele: @Arab_Books

اشتعلت النار في البيت الواسع الذي يسمى وطناً وقتلت الحقيقة الأم، دفنت في مكان مجهول، تبادلت المدن العزاء، قبلات معدية باللهب، وصل الجنون عنان السماء، توارى الموسيقيون والحكواتية وممثلو مسرح خيال الظل لم يعد لهم مكان في المظاهرات الليلية، لم يعد هناك من يرقص كمن أصابه مس من عشق ووجد ولم تعد النساء يفتحن شبابيكهن.

في المدن التي كانت هيبة السلطان ما تزال حاضرة فيها، لاحقهم الولاة وزجّهم في السجون بتهمة التحريض والمس بأمن الوطن، وفي الأجزاء التي سيطر عليها المتطرفون أعدم من ظهر منهم بتهمة المجون ونشر الفسق، حتى كراكوز وعيواظ اعتقلا وعلّقا على الخازوق وتناثرت حشوتهما من القطن بينما استطاع المؤدي النجاة بيديه العاريتين والبكاء في سجنه على صديقيه الدميتين اللتين صنعتهما له حبيبته الأولى.

تساقط الثلج ليلة رأس السنة محاولة من السماء لتغطية الضحايا الذين بلا قبور وليمحي الثارات المستيقظة كمومياوات بالية، عبثاً، النار أقوى من أي رحمة بيضاء.

ـ هل أخطأنا؟ سأل نفسه ليلتها وكان يستقبل عاماً جديداً لوحده لأول مرة من دون الأصحاب.

ـ هل أخطأنا؟ كرر سؤاله وهو يلف العود بشال أمه ويوقع لحناً لا صوت له إلا في روحه، طريقته الوحيدة لتفادي الذبح بتهمة العزف ونشر المجون. التوقف عن الموسيقى كان إعداماً أكثر

Tele: @Arab_Books

قسوة، هز رأسه بعنف وأمام عينيه لاحت المشانق المنصوبة للكفار والعسكر سيئي الحظ الذين وقعوا بأيدي المتطرفين.

أغمض عينيه بقوة، ضرب بأصابعه الرشيقة على بطن عوده كمن يوقع عقاباً بفكرة سقطت تحت يديه، لقد رأى نوار معلقاً، ضرب الرؤية مجدداً واستعاده كما ودعه آخر مرة، حراً وجميلاً مفعماً بالحياة وعيناه الصغيرتان تومضان صدقاً وصراحة.

ـ هكذا سأراك مجدداً، هكذا سأراك مجدداً، قالها بصوت مسموع كقرار لا رجعة به.

* * *

لو كانت جنية كما خشيت في أول مرة ظهرت لك محاطة بالشذى لتدبرت أمرها وطارت إلى البئر التي خرجت منها!

لو كانت حلماً تبدده أصوات المآذن لأودعتها مخيلتك ونجوت بها من القباحة التي تثمل وتعربد في المدينة، ملوثة الجدران بكتابات وشعارات من سم زعاف، لكنها ليست سوى امرأة صغيرة هشة كدمية خزف، امرأة بسيطة تحب اللون الوردي والحبق والحلي الفضية، كائن غير قابل للطي والإخفاء، فضيحة أنوثة ولطف هي وبطنها المكورة التي تفصلها عنك تنبض بالحياة وتزيدك تعلقاً وخوفاً على صاحبتها.

البارحة عادت ورمت شالها قائلة بتذمر: أنا بلا عمل.

لقد أغلقت مديرية الآثار حيث تعمل واختطف مديرها، بكت

Tele: @Arab_Books

بحنق وعانقتها وبعد دقائق أضاءت عيناها، همست: ما دمت معي فكل المشاكل لها حلول.

ألا ليتها لم تهمس فأنت اليوم حين سيشرق الصباح ستودعها إلى عملك، ومن يدري أي مزاج سيحكم نهارك، ألا ليتها لم تهمس ولم تحملك كل هذا الحزن العاجز، ليس بإمكانك البقاء معها لكن بإمكانك أن تعدها بأنك سترجع.

إنها نائمة باطمئنان من ينتظر صباحاً عادياً، الفجر يطرق نوافذ البيت، تصدح المئذنة القريبة بحزن عتيق يسير بمحاذاة الحرب دون اكتراث، تتقلب في غفوها وتهمس باسمك، تعانقها لكنها امرأة غير قابلة للطي والإخفاء، كائن بجناحين حرين، إن دخلت إلى تحت جلدك وحميتها، السلطان والمتمردون، المشانق والرصاص والسجون، جميعهم اقتتلوا واختلفوا لكنهم اتفقوا على كره الأجنحة.

* * *

صوت إغلاقه حقيبة السفر السوداء أظافر تخدش شغاف قلبها، لم تستطع جمع حاجياتها، تجمّدت كتمثال، سمعت صوته من داخل المحارة التي انسحبت إليها منذ داهمها الوداع، سمعته يناجيها ثم يتوسلها أن تساعده في جمع ما تحتاجه، لم تستطع الخروج إليه، لم تستطع سوى سماعه وحين خدشها صوت (سحاب) الحقيبة علمت أنه انتهى.

ألبسها حذاءها وخمارها الطويل وأنهضها برفق، نظرت إليه بعينين غائبتين، متكئة عليه سارت باتجاه الباب، على ظهر التلفاز قرطها

Tele: @Arab_Books

الفيروز، هديته الأولى، التقطته مطبقة أصابعها عليه، مغلقة كفها على حياتها معه، على طفلهما، على بيتهما، على السعادة النادرة، على الحكايات المدهشة، حتى على الأفلام التي شاهداها معاً وعلى النجوم التي اكتشفاها في حياة ماضية، على وعده بأنه سيعود، على وعدها بأنها ستنتظره.

نزلا الدرج، أوقف سيارة أجرة وأعطى السائق عنوان ذويها وجلس قربها تحت نظرات الرجل العدائية في مرآة السيارة.

المنزل قريب، بعد شارعين فقط، لطالما قطعتهما سيراً وشكرت القرب، الآن ذهلت حين نزلا.

ـ أهكذا بسرعة وصلنا؟ سألته بطفولة محزنة، حين فتحت لهما أمها الباب وتركتهما لوحدهما في صالة البيت بعد أن حيته مخفية عينيها الطيبتين عنه.

ـ سأغادر إلى عملي، قال لها مودعاً، عانقها وهاله ارتخاء جسدها في حضنه.

ـ عدني، حشرج صوتها.

ـ أعدك، أعدك، ودعها وبقي نظرها مسمراً على الباب الذي أغلق دونها ويد أمها تربت كتفها، الأم لوحدها أيضاً.

ـ أين أخواي؟ سؤال متأخر لجواب ودت لو لم يأت.

ـ ذهبا للحرب، انضما للمتطرفين، قالت المرأة المتعبة.

ـ ليقتلا زوجي، صرخت سيرين نادبة زوجاً وأخوين سقطوا في

Tele: @Arab_Books

طاحونة الحرب العبثية وتركوها، صرخت بعويل جارح كأنياب نهاية تبتلع الكلمات.

* * *

وصل مركز الشرطة قاطعاً الشوارع بقدميه الخائفتين، المحال التجارية مغلقة وعلى أبوابها كلمات تحذيرية، قطع الساحة حيث تجمع الحشد الفضولي ليشهد إعدام أحد عناصر الشرطة على يد المتطرفين قبل انسحابهم بعد اشتباكات الليلة الفائتة التي لم يشارك بها، ما يزال نثار الدم، لم يمنح الرعب للشارع نعمة مسح وجهه المدمى، النهر كله لو مر من هنا لن يكفي لتنظيف المدينة من الدم والظلم.

الذاكرة العاطفية لمعظم المدن سيئة كذاكرة عاهرة، انقلبت موسماً دموياً بعد مواسم الحب، ماذا يفيدك تذكيرك لعاهرة أنك كنت حبيبها ذات صيف، تمنح نفسها للأقوى كي يمتطيها، هاهي تمنح شوارعها وحياتها للتطرف، لم تحركها خيالات الثورة العادلة ولا طمأنينة المحظية المهجورة التي منحها إياها الملك.

صعد الدرجات الملوثة بالطين، قدماه تتجمدان برداً، بمعطف واقٍ من المطر وبحقيبة وضع بها منشفة ومنامته وعدة الحلاقة، فرشاة أسنانه وفردة جورب صوفي لطفل رضيع حاكته سيرين، دس الفردة الثانية في حقيبتها التي أعدها لها منذ ساعة.

منذ ساعة فقط ودعها، الخوف والقلق منحها طول شهر، متى سنلتقي؟ سأل نفسه وهو يستقبل البلبلة التي اجتاحت رفاقه، النوافذ

Tele: @Arab_Books

مسدودة بأكياس الرمل وحشيات الأسرة، آثار الأقدام تغطي الأرضية بسجادة طين وقذارة، إنها ليست حياته بل بداية كابوس لا يستطيع إنهاءه أو الخروج منه، معتقل مع مائة وأربعين شرطياً ورجل أمن وعسكري في كابوس واحد، إنه لا يعرف كيف يستيقظ، فتح عينيه لأقصى اتساع لا يحقق الغاية، بل إن الرؤية تستطيل وتضاف إليها طرقات الرصاص ومفاوضات تدور بمكبرات الصوت بين المتمرد الملتحي الذي يحمل اسماً جاهلياً وبين قائد حرس الوالي.

مسدسه الحربي يلكز خاصرته، (أنا معك) يذكره المعدن الصلب.

ـ أهي دعوة للانتحار المبكر؟ يسأله.

ـ إن وقعت في الأسر فتذكرني، يجيب المعدن بطيبة صديق حازم.

ـ لا صديق لي عندها سواك.

(تسوية) يهتف الآمر، سنخرج من هنا إلى معسكر الجيش.

إلى نوار يرتجف قلبه ويشعر بوثاق غير مرئي يشد كتفيه.

Tele: @Arab_Books

- ٢ -

يطل المعسكر على المدينة، في زمن ما أمر السلطان بإقامته على أرض زراعية خضراء تمر بمحاذاتها ساقية ماء وينمو القصب على أطرافها، في زمن ما كان السلطان مغرماً بالمدينة المنسية، كانت محظيته الملكية، حدث شيء جعله يكرهها، يمقتها ويهملها كعجوز انتهى غنجها، أبناؤها كانوا تعويضا عادلاً، جعلوا منها أغنى المدن لكنهم أحاطوها بالكتمان، غطوها بغطاء رث، لم يكن السلطان والدهم بل النهر المعتقل خلف السد هو من أنجبهم وتركهم للمدينة ترعاهم، لكن ما أصعب أن تكوني زوجة أسير؟

ربما يبدو هادراً وعظيماً لكنه كان أشد عظمة وكرماً يوم أغواها لتصبح ملكه، ضائعة هي اليوم في حرب تنخر عظامها وتعجّل بنهايتها، والمعسكر يطل عليها مذكراً إياها بأنها ما تزال ملكاً للأحمق الذي لا يعرف أن المدن لا تحفظ الود ولا فائدة من تذكيرها كل يوم بتاريخ لم يعد يروقها.

لم يستطع نوار السفر في رأس السنة فالطرقات قيّدت بالحواجز ومن غادر قبل أن يحدث هذا عاد بالمروحية، حلقت فوق الأرض مثيرة التراب المغطى بطبقة جليد، حشرة عملاقة وقبيحة، هبطوا منها

Tele: @Arab_Books

واجمين برؤوس أحناها القلق وجباه علقت بها أثقال ترغمها على الانحناء، حياهم نوار وسار حيث ركنت المدفعية القديمة، تلك التي لم تستخدم منذ سنوات ولا حتى للتدريب، تلقى أمراً بتنظيفها مع زمرة من أصحابه.

ربت على ظهر مدفعه بكفه فتركت أثراً على طبقة الغبار التي غلّفت الجسد الأسود للمارد العجوز، كف صغيرة لرجل صغير، لم يعتد القتال بل اعتاد القراءة، رجل يحب امرأة بعيدة عانقها مرة واحدة، قلبه لم يكن بكراً كجسده، لقد انتهكته الحياة بكل روعتها وغراباتها فعشقها بلهفة العطش وأشعلته، كف صغيرة لرجل صغير يخاف على العنكبوت الساكن في فوهة المدفع من خراب نسيجه فيهتف معلناً: لقد انتهيت، تاركاً الفوهة من دون تنظيف.

فلتمت كما سنموت أيها الرفيق العنكبوت بالنار، جميعنا حشرات ونملك حق الموت ساعة يحين الأجل، لك أجلك أيضاً، تموت بكرامتك، أول ضحايا في أول معركة، حيث الدويبة البنية التي توارت بسكينة في الظلام الآمن لبيتها.

في جيب سترته انتفض هاتفه الجوال مكتوما، أجاب مخفيا لهفته: يامن! أهلاً أخي.

ـ سنصل بعد قليل نحن على الطريق.

ـ أنتظرك، فليحفظك الله، أضاف من دون أن يكون واثقاً من أن الله يكترث حقاً بسلامة شقيقه أو حتى يهتم بترتيب الفوضى التي حدثت وإيقاف القتل المنتشر باسمه.

Tele: @Arab_Books

تصور أخاه خائفاً ويائساً، لقد قبل لنفسه كلا الأمرين لكنه لم يستطع تقبل سيطرتهما على يامن القوي المندفع.

ـ لتصل إلي وبعدها لن أسمح لبشر بتحويلك إلى ضحية، لتصل إلي، صلى طويلاً في مخزن المدافع، كتفاه مقيدتان برغبة في معانقة نصفه.

ثم وعند العصر وصلوا، خليطاً من مختلف قطع الجيش والأمن والشرطة وحامية الوالي، ركض صوب الركب المنهك، بحث بعينيه عنه، صرخ مع حناجر نادت قربه بأسماء معارفها وأقربائها.

ـ يامن.. ياااامن، تعفر وجهه بالتراب الذي أثارته ألف قدم تجر المجهول.

ثم حل وثاق كتفيه وشقت دموعه لنفسها طريقاً رسمته على الخدين المغبرين، لم يرَ وجه أخيه، عانقه متنشقاً تلك الرائحة الحبيبة، رائحة ولدت معهما وأدركها منذ وجدا لدى الأم ذاتها، لفهما الغبار والحديث المختلط للرجال، أراد منح عينيه مسافة لينظر في وجهه لكنه خشي فقدانه مجدداً، لذا لف الكتفين الهزيلتين لنصفه الذي حماه في المدرسة وفي عراكات الحي، نصفه الذي منح نفسه لمهنة لا يحبها كي ينفق على دراسته هو نوار، شاعراً بنسمة من الأمان تتسلل إلى قلبه.

ـ تعال لنأكل شيئاً ونستحم.

ـ أريد التدخين.

ـ اشتقتك.

وسارا معاً إلى الغرفة المربعة قرب محطة البث اللاسلكي حيث

Tele: @Arab_Books

يقطن نوار مع رفيق آخر، سارا متشابهبن أكثر من أي وقت مضى، توأمين في رحم الخوف والقلق والشوق.

* * *

تجشأ المدفع واحترق العنكبوت الذي يسكن فوهته في أول الصدامات بين العسكر المحاصرين وبين المتطرفين، سقطت القذيفة الأولى في الساقية التي تمشي كتفاً لكتف مع سور المكان، لم تلتفت المياه، امتصت النار وعاودت حديثها الرقراق من دون أن تعكره أصوات الرصاص وقذائف المدافع ولا شتائم الأرواح المغادرة لأجسادها بغضب وارتباك. روح العنكبوت علقت بقدم روح الجندي الصغير الذي بقي جسده مرمياً في منطقة الاشتباك بينما احتفظ وجهه بملامح غير مصدقة أن الحياة انتهت هكذا بلمحة شظية، حين توقف إطلاق النار ولملم الفريقان ضحاياهما جرحى وقتلى، بحثوا عنه ليجدوه في أبعد نقطة محتفظاً بابتسامة متجمدة وحاجبين مرفوعين فوق عينين وسعهما الموت، وعلى هذه الحالة تلقى التراب الذي ألغى دهشته، ترافقه علبة صفيح صغيرة وضع بها بطاقة تعريفه وورقة كتب عليها نوار كيف قضى الشاب واسمه الثلاثي مع اسم المدينة التي جاء منها.

كانت بداية المعارك ونهاية لحيوات رجال بدؤوا نهارهم بفطور بسيط وأمل بالتغلب على العدو في الطرف المقابل.

أضيفت المقبرة لموجودات المعسكر وفي أيام مقبلة سينقل الجنود المحاصرون طقوس حياتهم إلى معسكرهم وطقوس الموت التي

Tele: @Arab_Books

عرفوها في قراهم ومدنهم إلى مقبرته، مبتكرين طقساً فريداً يجمع كل ما تذكروه من صلاة الميت وأي طقس روحي آخر، تتلى بسرعة وهم متأهبون، إنها صلاة الحصار.

في الجنازة الأولى صلوا على القتلى وأمّهم (عزيز) الشاب الذي يشارك يامن ونوار غرفتهما، كما علمه جده الشيخ هناك في قريته البعيدة الواقعة على حدود البادية والريح، بعضهم رسم الصليب وآخرون مسحوا وجوههم من دمع وتراب، بسرعة واقتضاب دفنوا قتلاهم وعادوا إلى متاريسهم ومهاجعهم وأحلامهم بالخلاص.

كانت تلك المجموعة من الضحايا أول سكان المقبرة، أراد الأحياء أن تكون الأخيرة، أرادوا الخروج قبل أن تنقلب بهم الأرض ويبيتوا تحتها جميعاً.

في الصباح التالي من الغرفة الحاوية لأجهزة الاتصال، سمع يامن صوت أحد القادة الكبار يتحدث إلى السلطان شخصياً، بكلمات موجزة شرح له بؤساً لا تكفيه جميع المفردات التي وضعت لاختصار الألم، وطلب الإذن بالانسحاب.

ـ اللعنة على أمك، صكت الشتيمة سمعه، منبئة أن الاتصال المقدس بالسلطان قد انتهى، سمع ضربات قلبه في أذنيه وتحول دمه إلى سائل سميك يغلي طامساً معالم الفكرة والشعور، مبقياً على رغبة واحدة، رغبة حيوان في حفرة زلقة، الخروج حياً، النجاة بهذا الجسد من التراب المتربص بخلاياه.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

هناك حيث عاشت طفولتها الطويلة وشبابها القلق أمضت شهرين في منزل والدتها التي ودعت ابنيها إلى حرب قدرية، تتابعان الأخبار بدهشة وخوف، فإن تقدم المتمردون تراجع يامن إلى الخطر وإن تقدم السلطان بحثتا بين صور الملتحين القتلى المعروضة على المحطة الوطنية عن وجهين عزيزين، لم تغادرا المنزل إلا إلى البقالة الملاصقة للعمارة، لم يكن في الأخبار ما يبشر بالسلام والطمأنينة.

قد يغدو أحدهما قاتله، لم تستطع إبعاد الهاجس الشرس، صباحاتها قلق وانتظار لرنين هاتفها وليلها صراع مع هاجسها الذئب، ليلة تنتصر عليه وليالٍ يغلبها، تراكمت الغيوم السوداء في البيت من دون أمل يبدد الظلام الذي لف حياة المرأتين.

يجب أن تتخطى الحي وتبحث في المدينة عن شيء سقط منها حين خرجت من منزلها من دون أن تودع حبقها ولا حتى أن تتفقد أنبوبة الغاز إن كانت مقفلة، ولا أن تطفئ نور الحمام الذي ينساه يامن كلما اغتسل، يجب أن تتخطى الخوف وتسير أبعد من العشرين درجة والتسعة أمتار التي تقطعها كلما نزلت إلى البقالة، فربما تكون الحرب مسلسلاً يبث على تلفاز بيتهم فقط وربما يكون البائع الثرثار ممثلاً يحفظ دوره عن

Tele: @Arab_Books

ظهر قلب ويكرره كل صباح على مسمعها مجرباً قدرته على الإقناع بأعصابها وربما يكون زوجها في البيت ينتظر عودتها غاضباً لأول مرة من تأخرها عن تحضير القهوة وترتيب السرير!.

وربما في عملها يغطي غيابها أحد الزملاء بإخلاص، مبرراً انقطاعها بثقل الحمل!.

ربما المدينة ما تزال تعيش صباحاتها كمهرجان ألوان وروائح بينما تجلس هي في البيت منتظرة معجزة تخرجها من الجمود الذي سورها.

(الحياة تسير دونها) صحت باكراً بهذه الفكرة، نهضت بتثاقل لتصنع قهوتها، لكنها أفرغت علبة البن في القمامة بنفاد صبر.

ـ أكره البن المعلب، سأشتري من المحمصة قهوة طازجة، قالت لنفسها وهي تستحضر قوتها من حيث انزوت منذ غادرها يامن، ارتدت عباءتها فوق ثياب النوم وغطت وجهها وشعرها، الزي المفروض على النساء منذ سيطرة المتطرفين على المدينة وتنصيبهم خليفة منهم عليها، نزلت الدرجات العشرين متخطية حيها إلى الحي المجاور، عبرت شارعين اثنين، عباءتها أطول من قامتها، ترتبك بداخلها وهي تجرب التنقل بها لأبعد من البقالة المجاورة، تدوس على أطرافها التي كنست خطواتها، شعرها المشعث الثائر على عنقها المتعرق يزيد إحساسها بالضيق، لكنها تستمر ومن خلف الغمامة القاتمة تراقب جدران بيوت أشد قتامة، انقلبت ملامح المدينة كوجه تعرض للحرق، الرجال جميعهم ملتحون والنساء غطين بالسواد وفي الجو عبقت رائحة رعب وغضب، اختفى الأطفال، لم تصادف طفلاً واحداً

Tele: @Arab_Books

ولا حتى بائع أوراق اليانصيب ولا شحاذاً صغيراً ولا حتى صبياً يضع أمامه ميزاناً ويدعوها لمعرفة كم تزن مع بطنها، جميع النوافذ التي مرت بها كانت صامتة ولم تشِ كعادتها ببكاء رضيع أو سباب أم غاضبة أو دعاء امرأة تودع زوجها إلى عمله، سارت نحو بيتها، سارت بتصميم إلى حبقها ومطبخها والصالة الصغيرة حيث وضعت أريكة بلون وردي تتسع لشخصين فقط.

ـ هيه... هيه.. أنت، ناداها صوت جلف فتجمدت.

ـ إلى أين تسيرين وحدك؟ طرح السؤال من خلفها.

ـ في هذا الحي قابلة أريد زيارتها، واستدارت لتواجه المسلح ورأته فتى لم يتجاوز السادسة عشرة خافت أكثر.

ـ عودي إلى بيتك، كشّر ورأت أسنانه البنية.

عادت لتقطع المسافة ذاتها، فكرت بشقيقيها عدي ورشيد، أين هما الآن؟ لو كان أحدهما موجوداً لحماها وجعل القذر الصغير يبلل لحيته المستعارة بالدموع.

بكت والتصق الخمار بخديها، فرغ الكون من حولها، وحيدة في شوارع لم تعد تعرفها لمدينة لم تعد مدينتها، والنهر هذا الرجل الوحيد لترمي نفسها به وتنهي وحدتها ووحدته، لكنه لا يكترث بها ولا بالمدينة.

في هذا السوق التقت يامن لأول مرة وفي آخر هذا الشارع مديرية الآثار حيث كانت تعمل، يا للذكريات! منذ زمن قريب كانت واقعاً حلواً هي الآن محض ذكريات موجعة، كم هي مؤلمة استعادة لحظات الهناء في حلكة البؤس.

Tele: @Arab_Books

ندمت على مشوارها، خافت وأرادت أن تركض حتى حضن أمها كطفلة صغيرة، دخلت المنزل وهي تتنفس بصعوبة وتتعرق إنهاكاً، البيت هادئ، لم تستيقظ أمها بعد ولم تحضر هي بُنّاً بدلاً عن الذي رمته، رفعت غطاء وجهها وانهدت على أقرب كرسي، لكنها عادت لوضعه حين سمعت خطوات ثقيلة في الممر الموصل إلى المطبخ، قبل أن تصرخ ظهرَ عدي بقامته التي لعملاق ولبدة من شعر رأسه وذقنه حجبت ملامحه، اندفعت في عناقه وغابت في نشوة الإحساس بالأمان.

استيقظت الأم على الجلبة التي أثارتها سيرين وما إن ظهرت بهيئتها المشعثة الطيبة حتى انحنى عدي على يديها يغرقهما بألف قبلة وهما تحاولان رفع الوجه الحبيب للطفل الذي خرج إلى الشارع وتأخر لما بعد الليل في العودة.

انحنت تتنشق شعره وتمرغ وجهها به، حين انتهى طقس الشوق هذا اكتشفت بندقيته موضوعة على الطاولة في وسط الصالة.

ـ لا أحد يدخل إلى بيتي لا بحذائه ولا بسلاحه، خبئه عن عيني قبل أن أطردك، قالت بسخط من دون أن ترفع صوتها.

ـ لن تعاد، سامحيني يا أم عدي، داعبها وهو يحمل سلاحه ويضعه في غرفة سيرين مغلقاً الباب عليه.

نسيت سيرين هاجسها من أن يقتل شقيقها زوجها أو العكس، نسيته تماماً مستمتعة بإحساس السلام النادر الذي دخل نهارها بدخول عدي إلى المنزل.

حدثها عن هاجسه المماثل لهاجسها، عن رغبته في إنقاذ زوجها وأنه اتصل به حين استطاع وطلب منه الخروج ليساعده بالهرب والعودة إلى

Tele: @Arab_Books

ذويه، لكن يامن رفض بحدة وترجاه الاعتناء بسيرين، قال له: خذها بعيداً، أنقذها، هذا ليس قدرها، لا تجعلها تدفع ثمن قدرينا يا عدي.

لقد حدث انشقاق بين الفصائل بعد تولي الخليفة قيادتهم، عدي ورشيد يعملان تحت لوائه وهو من يسيطر على المدينة ويحاصر المعسكر المنكوب وفي هذا الوقت العمل المهم هو توحيد الصفوف والقضاء على المنشقين وعائلاتهم، بسّط عدي الوضع لوالدته وشقيقته وأضاف بأنه سيستغل الانشغال بهذه المهمة كي ينقذ يامن، لكن وليكن في حسبانها أنها ليست زوجته شرعاً فهو يعد من جهة الدين والعرف كافراً.

انتحبت سيرين ولم تتوقف عن البكاء إلا حين تدخلت أمها.

- إنك تتحدث كوغد لا علاقة لزوج شقيقتك بكل ما تعتقد به، أنا لم أربيك على الحقد.
- حسناً حسناً، أرجوك لا تغضبي، حاول جاهدًا إرضاء أمه.
- وأنت أعدك وأعد أمنا بأني سأنقذه وبعدها لتكن مشيئة الله، أضاف مهدئاً أخته التي صمتت وهي تشرق بدمعها وتملكها شعور بأنها ستحتاج دموعها لخطوب أكثر أهمية من شر لم يحدث بعد.

في تلك الليلة جمعت حاجياتها مطمئنة إلى الاتفاق الذي جمع زوجها وشقيقها لحمايتها، دارت في البيت، لملمت أوراقها المهمة وبضعة أثواب وطوت وثيقة زواجها مخفية إياها داخل حرز أهدتها إياه سائحة عجوز واعتادت تعليقه في عنقها كقلادة، لم يكن مصنوعاً من مادة ثمينة ولن يلفت الانتباه، أرادت إخفاء علاقتها بغريب، كمن يخفي وشماً عزيزاً لا يزول لكنه قد يكون سبباً للهلاك.

Tele: @Arab_Books

ستسلم قيادها لعدي يسير بها وبوالدتهما حيث يشاء، هي الآن معلقة بين السماء والأرض في دوامة لا تدري نهاية لها، لتنزل يجب عليها اختيار هوية، الليلة وهي تهبط درج البيت إلى سيارة فارهة يقودها عدي الذي حمل سلاحه وتجلس قرب أمها الصامتة، تتحسس الحرز البدائي وتجد ما تريده، تختار ما يريحها، لقد قررت أن تكون امرأة فقط، أماً وزوجة وأختاً وابنة، لن تكترث بمن يجلس على كرسي الوطن أو حتى كرسي السماء، كل ما يهمها تلك الكراسي التي تخص عائلتها يجب أن يعودوا إليها كما في آخر عيد حيث دعتهم جميعاً إلى مائدتها في المنزل الذي يضوع برائحة حريق.

نامت كي لا ترى مشاهد الطريق وقبيل الفجر بقليل وصلوا وجهتهم وعلمت أنها أصبحت في قرية بعيدة عن المدينة حيث ولدت أمها وعاش أخوالها وجداها.

ترجلت من السيارة مستقبلة برودة الهواء الرطبة بابتسامة متوترة، تنهدت الأم وأماطت خمارها عن وجه بللته الدموع وفي عيني العجوز التي هرمت قبل الأوان حلقت نوارس من بعيد، نفضت الملح عن أجنحتها وغطست في البؤبؤين، خيل ليسرين أن أمها عادت طفلة فتلك النظرة لا يمكن أن تكون إلا لطفلة لم تغادر بيت أبويها، ولأول مرة منذ غياب يامن اقتربت منها وأحاطتها بذراعيها، لقد كانتا امرأتين في حرب الذكور القبيحة، مجرد امرأتين.

* * *

تكومت على نفسها كقطة قرب المدفأة وخارج البيت كان البرد لا يحتمل يجمد الكلاب والعصافير والفارين بلا خارطة ويوقف تدفق

Tele: @Arab_Books

الحياة في القرية الصغيرة. قرية العجائز والنساء والأطفال، فندق الانتظار الآمن لحين عودة الرجال، مستودع ركنوا به كل من يحبونه بانتظار انتهاء الحرب أو انتهاء الحياة، كل من فيها هو عاجز عن فعل الحرب لكنه يعيشها بخوف على محارب ما هو العزيز الغائب.

محاصرة بالانتظار، يضيق بها البيت الذي كان فيما مضى منزل جديها لأمها ولفترة طويلة سكن به خالها الأصغر إلى أن ذهب للحرب كان بلا زوجة ولا أولاد لذا ترك المنزل لابن شقيقته يفعل به ما يشاء.

أسبوع منذ جاءت هنا لم تر ما خلف النافذة رافضة إغراءات الأم بمشوار إلى السوق الصغير أو زيارة الأقارب الذين يشكلون نصف سكان القرية، تنتظر شبكة الاتصالات ولو لدقيقة لترسل لزوجها رسالة من هاتفها الجوال كتبتها في وقت سابق وخزنتها في حافظة المسودات بانتظار دقائق الرحمة حيث تفتح قناة ضيقة كحبل سري يربطها به، توصله شيئاً من حبها، قلقها وإيمانها بعودته.

انكفأت على نفسها بصمت احتاجته لتتفاهم مع جنينها وتفهمه أنه سيأتي ووالده غائب وأنها هي أمه ستحاول جاهدة تجنيبه عناء البحث عن حلول لهذه المعضلة وأنها تحبه مهما حدث وأنه وجد في لحظة حب لا شبيه لها لذا فقدره سيكون حلواً، وهو بدوره استمر ينبض ويرفس موصلاً أنه حي وأنه يفهمها فلتحسن الظن به.

لم تتأكد من جنس الجنين حين كان الأمر متاحاً في عيادة الطبيبة التي اعتادت زيارتها حين كانت في المدينة، لم تشأ معرفته، وحين نزلت القرية قلقت لأن الطبيب الوحيد رفض توليدها حين يحين الأوان، لكن أمها اتفقت مع زوجة الحلاق وهي قابلة وممرضة على

Tele: @Arab_Books

مساعدتها لحظة مخاضها، اللحظة التي حسبتها باليوم والساعة لكنها في فرارها من بيتها إلى بين والدتها ثم إلى القرية ضاعت هذه الحسابات في فوضى الهرب.

وحين انتصف الليل واشتد البرد وهي متكورة تراقب حركته، حركة كائن مائي يريد تحطيم حوجلته والقفز إلى النهر، تحطمت الحوجلة وسال ماؤها من دون ألم محسوس سوى مفاجأة التمزق، من دون مخاض حقيقي، جاهد الجنين لينزل لذا صرخت بكل قوتها مستدعية أمها والجارات اللواتي لا تعرفهن.

ـ لا أريد أن أفقده، غرست أظافرها بيد الأم وغابت في هذيان مرعب.

ـ ادفعي.

ـ تنفسي، هيا تنفسي.

في غيابها سمعت الأصوات التي تحثها على مواصلة الطريق وكانت تسير صوب طفل رضيع مرمي قرب النهر، عار كسمكة سلمون ومن الماء الأسود تقدم حوت ضخم فاتحاً فاهاً شرهاً، في سباقها مع الحوت سعت لتصل قبله وتنقذ الرضيع.

ـ ادفعي، تنفسي، تنفسي، سيرين.

تنفست ملء رئتيها ودفعت بروحها صوب ضفة النهر، وصلت حيث الطفل حملته عائدة صوب مجموعة النساء المتحلقات حولها، فتحت عينيها ورأته محمولاً بيد امرأة نحيلة دلته من قدميه وبيدها الأخرى كانت تحاول تخليصه من الحبل الذي ربطها به منذ وجد في داخلها، مغطى بالدم وبشعرات قليلة مبللة تلقى أول صفعة على مؤخرته فصرخ باكياً.

Tele: @Arab_Books

ـ هاتيه، طلبت بظمأ.

ـ إنها بنت، قالت زوجة الحلاق وهي تضع الطفل اللزج على ضفة أمه المتوهجة باللهفة والدهشة.

* * *

انظري يا حبيبتي هذه جدتك إنها تتحدث كثيراً لكنها طيبة، وهذه المرأة القصيرة النحيلة إنها زوجة الحلاق وهي من حملتك أولاً وهي من ساعدتني حين أنجبتك مع أني لا أظن أنها فعلت شيئاً سوى الصراخ (ادفعي، تنفسي)، وتلك المرأة الطويلة الحسناء هي جارتنا (سميحة) لقد كانت موجودة حين ولدتك وحتماً ستكونين قد ميزتها فهي أجمل امرأة في العالم وأنا أمك التي أنقذتك من الحوت، على هذا المنوال يدور الحديث بين سيرين والطفلة الهادئة استمراراً لحكاية بدأت الأم بروايتها منذ شعرت بالجنين لأول مرة.

امتلأت حياة سيرين بعد مجيء ابنتها وتعرفها على سميحة الجميلة كملكة حقيقية بمواصفات نساء ألف ليلة وليلة، أدخلت معها إلى عالم جارتها المنطوية ستة أطفال وضحكتها الرنانة وحكايات القرية ترويها بتمهل في الجلسات النسائية التي تضم إضافة إليهما ولجوقة الأطفال أم عدي التي بدا أنها تعيش بكل كيانها مستمتعة بكل لحظة تمر وهي بين ذويها وفي قريتها.

سميحة زوجة رجل غريب تخبئه في بيتها المقابل لبيت سيرين، لا يمكن لامرأة قبائلية الحصول على غريب إلا مع حكاية، روتها في الليلة التي انقطع بها التيار الكهربائي لأول مرة وتجمعن ثلاثتهن حول

Tele: @Arab_Books

شمعة وحيدة بينما تناثر الأطفال على السجادة الصوفية ينقصهم الصبيين الكبيرين اللذين بقيا مع والدهما في المنزل، روت:

منذ ١٢ عاماً مع مطر الربيع تساقط الحب، في هذه القرية لا يحدث الكثير، لكن ذاك العام حمل ربيعه قصص حب جميلة وأعراساً متتالية، وكنت أنتظر مجيء الحب، أراه في عيون صديقاتي يلمع كالمرآة ويعكس وحدتي، وحيدة ومتقدمة في العمر، الوحدة هي الشيخوخة.

أتعطر كل صباح وأمشط شعري ثم أغطيه تاركة أطرافه حرة ليعرف من يراه طوله، قد يأتي أمير كما في الحكاية ويتشبث بخصلاته متسلقاً برج وحدتي منهياً انتظاري الذي طال.

أخرج مع والدي إلى السوق لأساعده في بيع الألبان التي صنعناها في البيت، كنت آخر إخوتي على قيد العزوبية وقد توفت أمي وبرحيلها أصبحت سيدة البيت وصديقة العجوز الجميل بائع اللبن.

في صباح ما انهمر من المذياع صوت فيروز غنت أغنية نستها الآن ثم تحدثت، لقد كانوا يبثون إحدى مسرحياتها أو أفلامها، قالت إنها أحصت شبان القرية فوجدتهم ٢٨ وعدت الفتيات فكن ٢٩، هذا يعني أن فتاة واحدة ستبقى بلا حبيب (يا رب ما كون أنا) رددت دعاءها بقلق وهاجسي يخبرني أنني هي، نطقت بنبوءة تخصني وحدي، أنا من ستبقى بلا حبيب.

عشت شهوراً بهذه الفكرة ثم استكنت لقدر جعلني الفتاة الجميلة التي ترقص في أعراس صديقاتها مع خيال لرجل غير موجود وتتلقى غزل الرجال المتزوجين بوجه من جليد، إلى أن حدثت المعجزة،

Tele: @Arab_Books

كان هذا يوم خميس، اليوم الذي يمر به عمال بئر النفط القريب في سوقنا ليشتروا ما يحتاجونه لعطلتهم، وكان بينهم، لم يسبق أن ميزته عيناي، ارتبك وقلب وعاء الحليب فانتبهت لوجوده وبدلاً من أن أغضب ضحكت وانتقلت عدوى الضحك إليه وإلى والدي واختفى الكون وبقيت ضحكته، ضحكة مرتبكة لرجل كبير وضخم وجميل.

عدت وعاد بين جفني ونومي، لم أستطع نزعه من رؤياي، حلمت به أسبوعاً كاملاً وانتظرته فجاء، هذه المرة لم يرتبك بل ألقى السلام وجلس مع أبي قليلاً حتى صررت الجبن الذي طلبه وأنا أعطيه الكيس دس بيدي ورقة صغيرة أخفيتها في كمي، موعدي الأول في كم عباءتي السوداء، كم تحول لجناح طار بي عند المساء إلى البرية على أطراف القرية، مشيت نصف المسافة ومشى نصفها والتقينا في الوسط، نصف ساعة لم يقال بها سوى التحية وصمتنا، أصغيت لتنفسه قربي ولضربات قلبي وحين وجب علي العودة، قال: أحبك.

تواعدنا كل مساء لنصف ساعة، حدثني عن قريته التي تتسلق الجبال قرب البحر وأنه ينتمي لطائفة ما تزال عائلة مرشدها الروحي تشرف على شؤون رعيتها بحب متوارث.

وحدثته عن فيروز التي تنبأت لي بحبيب غريب، قال إنه في إجازته المقبلة سيعلم ذويه بوجودي في حياته ويجب أن أخبر أبي أنه يريدني زوجة.

لكن الواشين لم يمهلوه، وصل خبر لقاءنا للقرية وكنا معاً، جاء طفل من بعيد لاهثاً وقال: اهربي، سيقتلونكما.

أمسكني من يدي وركضنا إلى أكواخ عمال النفط حيث تعيش

Tele: @Arab_Books

عائلات كاملة في بيوت صغيرة من خشب، أخفاني عند إحدى العائلات وحين وصل إخوتي وأبي وذكور عائلتي إلى المكان وقف بوجههم أرادوا ذبحه والبحث عني لأتلقى ذات القصاص، لكن أبي تدخل مع بعض العقلاء، تغلب حبه لابنته على عصبيته.

وافق على زواجي تحت شرط القبيلة بنفيي خارج القرية عشر سنوات، زارني خلالها خلسة وفي كل ولادة لي أحضر هدية للطفل وهو من سمى البنت الثالثة (نوف) تيمناً بأمي، توفى منذ عامين فسميت رضيعي هذا (شاهين) كما هو اسمه.

جاءت ألحرب وهجم مسلحو الفصائل على بئر النفط وقتلوا من وجدوه هناك، فررت إلى بيت والدي الخالي، عدت إلى قريتي التي نسيت عداوتها للغريب وتذكرت قصتنا فقط.

- إنهم يعرفون حكايتك أيضاً سيرين، أضافت سميحة كمن تكشف عن صلة قرابة منسية تربطهما، منهية حكايتها وهي تغطس طرف إصبعها بالشمع المذاب على أطراف الصحن الصغير.
- هذا يعني أنني معفاة من الرواية، أجابت سيرين.
- دورك خالتي إحكي لنا حكاية حبك لأبي عدي، موجهة دفة القصة نحو الأم.
- لم أكن أحبه، همهمت المرأة.

Tele: @Arab_Books

(معسكر)

تركض وحزنك في قدميك، حذاء حديد وصخر، تركض وفي فمك بقايا قصيدة كنت تحاول استحضار مطلعها منذ استيقاظك، شقيقك قربك في فمه بقايا طعام لم يتمه، معفر ونحيل، لا وقت للقصيدة ولا للطعام، لا وقت سوى للحزن والخوف والرصاص، الحزن في مؤخرة الرتل بطيء ومذهول.

- إنهم يهاجمون الباب الغربي للمعسكر، خبر أنبأتك به الجهة التي تأتي منها الأصوات الأولى للاشتباك، تتقاذفه الأفواه لكأنه تحية الصباح.

بندقيتك بوصلتك تقودك إلى الساتر الترابي الذي أنشأته مع عزيز ويامن ليلة أمس، ما زال الغبار البارد المثار تحت معاولكم يحك حنجرتك مع كلمات القصيدة التي استعصى مطلعها، ارتداد السلاح على كتفك تربيتة صديق خشن والرصاص قبلات الموت إلى الصدور.

اقتل.. اقتل لتبقى حياً.

اقتل.. اقتل لتستمر حيواناً في غابة الفتك هذه.

الهجوم قتل والدفاع قتل والاستسلام قتل تحت مسمى انتحار

Tele: @Arab_Books

جبان والقتل وجهتك الوحيدة، خيارك اليتيم، القدر مبتور الأصابع يمد لك يداً بإصبع واحدة ويقول لك: (اختر واحداً من أصابع كفي).

يهزأ منك، يهزأ منك، ترتجف وتنظر إلى إصبعه الوحيدة الحادة (هذه).

إنه خيار الموت، اقتل، اقتل.. اقتل الأمر الذي حول عالمك المنحوس إلى جزأين، جزء خلف الساتر وجزء أمامه، قسم الناس لديك إلى صنفين، مهاجم ومدافع، وجوه من خلف الساتر الترابي، وجوه عليك أن تكرهها، أن تراها بلا معالم كي تنسى أنك قتلتها وتتذكر فقط قناعتك بأن أصحابها هاجموك محاولين سلبك روحك وأن إصبع القدر الخرقاء هي خيارك اليتيم.

اقتل.. أنتم الخير وهم الشر ولولا هذه القناعة البسيطة الهشة غير الصالحة لأي زمان سوى ذاك المعلق بين لحظة انطلاق الرصاصة واستقرارها في صدر حي، لولاها لمت الآن ولماتوا جميعهم، ألف وخمسمائة محاصر إذاً لقضوا من دون أن يجدوا من يدفنهم في المقبرة المرتجلة.

لا تنظر في وجه من تقتل لا تحاول إدراك لون بشرته أو عمره، الذاكرة لا تحتمل وجوه الموتى الغرباء، ما أثقل ملامحهم!.

لا تنظر، سدد وأطلق على الصدور لا على الوجوه، على الكائنات التي تشتمك وتلعنك وتحاول جاهدة قتلك.

البندقية تربت على كتفك، معدنها يحرق كفيك، كفين صغيرتين لرجل صغير يحارب لأول مرة ويقتل لأول مرة وعلى المتراس سقطت منه قصيدة.

Tele: @Arab_Books

ثم توقف الاشتباك، وسقطت على ظهرك أيضاً منهكاً.

لملمت الكلمات، ها أنت تمضغها كبذور القهوة السوداء التي تحب، مرة وفاتنة، داكنة كدم صاحبك على التراب.

عزيز..عزيز يهزك الصوت، لقد أصيب في مكان ما من جسده، عيناك فارغتان بالذهول ويامن يحمل حصته من الألم ويركض به إلى المستوصف البعيد في وسط المعسكر.

تجر قدميك خلف النقاط الحمراء.

انتهت المعركة وعند المساء سيبدأ دفن الرفاق.

* * *

في النقطة الطبية التي عاشت في الماضي من دون فائدة تذكر، على سرير مبقع بدم جاف لجريح سابق، وضعوا عزيز، جسده المنتفض يلاحق الأكسجين وما إن يمسك به حتى يتسرب من الجرح المفتوح في الكتف القوية الشابة.

ـ انزعوا الرصاصة، يصرخ ويعض كفه بأسنان تصطك.

لقد قتل طبيب المعسكر العجوز الذي كان يحلم بتقاعده ليعود إلى أحفاده، في مكتبه ما تزال صورهم تحت زجاج الطاولة، فتاة صغيرة بثوب المناولة الأولى، وصبيان بثياب قزم عيد الميلاد.

وصل التقاعد وهم في الحصار، لم يستطع العودة وقتل بقذيفة سقطت قربه وهو يحمل محفة الإنقاذ مع ممرض شاب في أول هجوم بالقذائف على المعسكر.

Tele: @Arab_Books

صنع عزيز لقبره صليباً خشبياً وقرأ الفاتحة متذكراً عيني الطبيب اللتين تشبهان عيني جده، أكثر من يحب في الكون، استدعاه اليوم ناسياً في هذيان ألمه أنه رحل. ناداه باسمه: دكتور عبد المسيح، صرخ ثم سقط بالإغماء.

الأطباء غير الممارسين والممرضين هم بمجملهم ما يسمى الكتيبة الطبية وهم من تقع على عاتقهم عمليات الجراحة جميعها، محاولة الإنقاذ أفضل من ترك المصابين للموت والتعفن، تحت هذا البند من قانون الحرب غير المدون عملوا.

نفدت كمية المخدر القليلة واقتصر استخدام التعقيم بالمطهرات على عمليات البتر، بملاقط عقمت بالنار ودون تخدير سوى خدر الإغماء الذي انتهى إليه عزيز نزع الطبيب الرصاصة من الجرح وضمده بقطعة شاش وهو يمسح عرقاً غزيراً انهمر من جبينه، على السرير المقابل لفظ رفيق آخر أنفاسه تاركاً جسده مبتور الأطراف ملفوفاً بضمائد كان على الطبيب نزعها وغسلها لتستخدم مرة أخرى.

هبط الليل على المعسكر خيمة عزاء على ظلال المحاصرين، حفروا تسعة قبور بدا أحدها كأنه لطفل رقد به جثمان الرجل مبتور الأطراف مع علبة صدئة وضع بداخلها ورقة كتب بها اسمه وقصة موته مع إضافات أكثر بطولة من الواقع.

القصص التي دفنت مع الرجال القتلى كانت تمرين نوار الأول على الكتابة، وبعض التراب أكثر أهمية من أهم الصحف حين يكون القراء المحتملون جمهور النساء المنتظرات لجثمان عزيزهن وأحفاد يحلمون بقصة الجد البطل وتغدو صحف الوطن كذبة ورقية.

Tele: @Arab_Books

(نوار صحافي التراب) بهذا اللقب عرف في المعسكر، ارتداه تحت ثيابه العسكرية، تحت درعه الثقيل ثقل بيت سلحفاة عملاقة، ألصقه بجلده وجعله هدفاً يمنحه الرغبة بالاستمرار على قيد الحياة، حي ليدون قصص الموتى، مقيد بالحياة وهم أحرار، الموت آخر الحريات، لم يعد يحلم لقد برؤ من أحلامه ولم يعد يفكر بالسلطان، نسيه وانصب تفكيره واهتمامه على الكائنات التي تشاركه الحصار من دون بذل الجهد بالبحث عن المسبب الحقيقي.

في بعض الأوقات العصية على الحصار، الخارجة عن الزمان والمكان وحين يمل محاصروهم ويسترخون، يعود لكتبه ويقرأ شيئاً جميلاً، عندها فقط يسمع صوت فتح باب مغلق وخفق أجنحة، إنها ذكريات الحرية الحلوة، يغلق كتابه وبابه بوجهها مدركاً أن استسلامه لروعتها سيسلمه لفقدان الصبر والهلاك.

أراد البقاء رهن الوعي وانتظار الأفضل والسير إليه لأجل أمه ووالده اللذين ينتظرانه ولأجل شقيقه الواقف على شفير القنوط ولأجل حبيبته البنت المولودة بلحظة فقدان ولدتها أمها في يوم بعيد، وكان الوطن يعيش اضطرابات مشابهة لما يحياه اليوم في النهار الذي وجدت به جاء إلى القرية من يقص أن المتمردين قتلوا شقيقها ورموه في نهر بعيد، سمّتها أمها (دمعة) اسم تحدت معناه محولة وجهها الصغير إلى ابتسامة مشعة، لكنها فقط لا تستطيع تذوق السمك، جميع السمك يعرف شقيقها وهي لا تستطيع التهام مخلوق به شيء من دمها.

ينتظر رسائلها حين تسمح شبكة الاتصالات، تكتب له كل شيء

Tele: @Arab_Books

وتطلب منه أن يراسلها، أن يخبرها كيف يحيا فيختصر كل الإجابات بكلمة (أحبك).

هي جزء من الحياة التي انتهكت قلبه البكر، لا يذكر منها سوى ملمس شعرها على أنفه ورائحته المنعشة، رائحة ربيع ممطر، يجب أن يعود ليعرف أكثر، لكن هل ستنتظره؟ أقلقه السؤال عشية وقفة عيد الأضحى قبل انهمار القذائف التي افتتحت مهرجاناً لأمطار الموت والحقد، دار السؤال في ذهنه المزدحم وفكر بأنه لو نجا سيسألها ألا تنتظره فقد ينتهي بلحظة ما في حفرة من دون ورقة تضم حكايته، سيقول لها: اجعلي قدرك أجمل من شقيق غريق وحبيب محاصر.

* * *

مساء وقفة عيد الأضحى على ضوء القنديل الذي اخترعته الحاجة، حبة بطاطا مفرغة وضع بها زيتاً وفتيلاً، سهر سكان الغرفة المرقمة (٧) مستمتعين بساعات الهدوء النادرة، عزيز بكتف مضمدة والتوأمان اللذان منحهما الهزال والانفعالات المتشابهة ملامح متطابقة.

رن هاتف نوار برسالة، تلاه رنين متتالٍ لهاتفي شقيقه وصديقه، وفي الخارج ظهرت حركة شبيهة بدبيب الحياة في طرف مشلول، زحف العشرات إلى التلة حيث يمكن التقاط شبكة الاتصالات بشكل أقوى لإجراء مكالمة كاملة، خرج الرفاق الثلاثة، احتفظوا بالرسائل التي تلقوها من دون قراءة كزاد ثمين وهرولوا على كتف المعسكر

Tele: @Arab_Books

ليحظوا بالأصوات التي افتقدوها، جرعة ماء لمسيرة الظمأ، وحدهم الرجال الذين في نوبة الحراسة فاتتهم هذه النعمة.

يحدث لتلة صغيرة أن تتحول إلى (عرفة) حين تغدو منة الله صوت من نحب.

التراب في حذائه وفي حواسه التي تعطلت كلها مانحة حاسة السمع قوة خمس حواس مجتمعة.

ـ ماما.. ماما، ناداها مثلما لم يفعل منذ إدراكه الشباب وقربه وقف يامن يتحدث إلى سيرين كعناق علني، بينما ميز صوت عزيز يطلب من والده تمرير الهاتف لجده لأنه يريد سماع تنفس العجوز الذي يعلم الجميع أنه يحبه أكثر من كل الكون.

مسح الغبار عن عينيه ورآهم، عشرات المعتقلين خلف سياج حديدي يصرخون بالأحياء على الجانب الآخر ويطلبون بكل احتيالات اللغة ألا ينسوهم وألا يستبقوا الموت.

الموت أمر يتعلق بالأحياء، انتهاؤك في حفرة لا يعني موتاً كلياً، نسيانك هو الموت، ضياع رائحتك، رمي ثيابك للمتسول الذي يمر كل جمعة هو الموت، استبدال امرأتك لصورتك الموضوعة قرب السرير موت، نسيان خصرها لاحتراقه تحت أصابعك موت، مرور الأصدقاء قرب بيتك من دون أن يطرقوا بابه موت، توقف الأم عن الابتسام كلما زهر المشمش في الحقل الصغير.. نسيان الجد للحكايات التي سيرويها لك موت ويأسه من سماعك تغني له قصائد لقنك إياها وأنت طفل موت.

(لا تنسوني) الطلب الذي التمسه عشرات المحاصرين على التلة

Tele: @Arab_Books

الصغيرة المزدحمة بظلالهم، أراد نوار طلب رقم حبيبته بعد أن أنهى حديثه مع أمه ووالده حين أضاءت السماء بشهب مشتعلة سقطت دفعة واحدة على المعسكر مخلفة حريقاً في المساكن القريبة من التل، قدر أن أولها قد أحرقت غرفته، لقد كتبت لهم النجاة لكن إلى متى؟

بحنق عنيد استمر انهمار القذائف عليهم كغضب لا زوال له، احتموا بالخنادق وبأبعد نقطة آمنة، دافعوا باستماتة وبكل ما توفر من أسلحة.

حاول إبقاء عزيز المصاب بينه وبين شقيقه لحمايته وخلف متراسه محتضناً مدفعه تخيّل نفسه ممزقاً ومرت به كل كلمات العزاء التي ستقال في مأتمه.

بطل، بطل، جعلته الكلمة يضحك بهستيريا، الضحايا ليسوا أبطالاً وهو لا يريد أن يكون لا بطلاً ولا ضحية، يريد فقط العودة إلى ضيعته، الأم تنتظره والبنت الحلوة التي لشعرها رائحة البابونج تنتظره، سيبقى حياً ليستحق انتظارهما.

بين أصوات الصراخ والأنين وإضاءات السماء الملونة ببهرجة الموت عادت القصيدة لفمه، انتظريني سأعود، تذكرها كاملة حتى إنه تذكر اسم الشاعر.

سيمونوف، نعم إنه سيمونوف.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

فقدت الاتصال بزوجها، لكنها قبل الصمت سمعت ضوضاء الرعب على الجانب الآخر.

لقد منح الطفلة اسماً حلواً، سمّاها (حلم) الاسم كان عيدية الأب المحاصر، المسافة والخطر حرماه متعة وضع قطعة نقدية في كفها الصغير صباح العيد والإحساس برطوبة راحتها الوردية تطبق على إصبعه، خبأ اسمها وأهداها إياه في تلك الأمسية.

غفت سيرين مجهدة بعد نهار أمضته مع سميحة وهما تخبزان كعكاً عبق الرائحة وعند الفجر استيقظت محمومة بلا مرض يهزها هاجس أقوى من أصوات المآذن المحتفية بالعيد.

نهضت من سريرها، الطفلة نائمة تتململ في سريرها وعلى الضوء الخافت رأتها تبتسم لكائنات لا اسم لها، لم تعرف حقيقة ما يؤرقها، فتحت باب البيت متجاوزة الأم الغافية على الأريكة أمام التلفاز، تنحنحت المرأة لكنها لم تستيقظ.

خرجت إلى الشارع، هدوء خاشع وكأن كل من في الكون يصلي مع المساجد، وقفت مسلمة حواسها للظلام، تحسس سمعها الجدران باحثاً عن صوت مضيء ومن البيت المقابل حيث لا يفصلها

Tele: @Arab_Books

عنه أكثر من متر ونصف المتر أضاء صوت حب، نداء لحبيب يمضى، تأوه مكتوم وكلمات متداخلة تضوع بالرغبة والعشق، كانا يمارسان الحب باندفاع من سيفترقان، استطاعت التقاط الرائحة التي لطخت عذرية الفجر وتحدت صلاة العيد، رائحة حب وجد منذ الأزل ممتزجة برائحة التراب الندي.

شعرت بالخزي من نفسها وكأن جدار البيت قد شف أمام ناظريها كاشفاً عريهما البدائي، انسحبت إلى الداخل، دخل خلفها الحزن ولم تستطع نفضه عن ثوبها، تناولت قطعة من كعك العيد قضمتها ملهية جسدها عن حرمانه الذي اكتشفته في امتلاء صديقتها بالحب.

(أحبك، أشتاقك، أريدك) كتبت وأرسلتها من هاتفها الجوال قبل أن تختفي الاتصالات وبكت بحنق امرأة متطلبة وشهوانية، محطمة العهد الذي قطعته على نفسها منذ غدت أماً بأنها لن تبكي وكان للألم الذي استحوذ على كيانها طعم الشمرة واليانسون ورائحة عجين شبق.

لم تظن بأن الوحدة يمكن لها أن تتمادى بوجود كل هؤلاء الناس، وحدتها كانت جزءاً من كيانها، ثقب خبيث يتسرب منه البرد وحين توسعه الريح بمنشارها تفقد ضبطها لنفسها فتغدو أشد غرابة حتى بالنسبة لأمها وسميحة الملازمتين لها.

وحده يامن قادر على إلغاء وحدتها وبغيابه حتى مع طفلتها (حلم) كانت وحيدة.

بعد تلك الليلة لم تعد للبكاء لأنها لا تريد نقل الحزن إلى الطفلة عن طريق الحليب، لقد عرفت هي كيف يكون شعور الأم جزءاً من طبيعة الطفل حين يتلقاه بالحليب، كان والدها قد توفي قبل شهرين

Tele: @Arab_Books

حين ولدتها أمها، رضعت الوحدة حتى أصبحت مرضاً تحيا معه تحتال عليه بالكتب والأصدقاء والعمل والحب.

يامن كان أكثر من حيلة، كان القامة التي تسد الوحدة وتختزن كل دفء الوجود، حياتهما معاً تحقيق لحلمها بصديق حقيقي، قبله خافت من استفحال وحدتها قرب الرجل الذي ستعيش معه، لكنه ألغى قلقها، بينما أدمنت هي الكتب كان مدمناً على الأفلام، عاشقاً للسينما، تقص له ما تقرأ وهما يشربان قهوتهما على طاولة المطبخ وكل ليلة كانا يشاهدان فيلماً يختاره هو بعناية.

علاقتهما كاملة لدرجة مريبة، ربما كان يجب أن يقطعها الغياب ومحنة الانتظار.

هنا في منفاها اشتاقت للأفلام وحاولت متابعة أحدها لكنها لم تستطع، مكتشفة أنه هو فقط من أعطى لكل هذه الحكايات المصورة المعنى بالنسبة لعينيها.

بحثت عن كتاب تقرأه، لكن لا وجود لأي مصدر ورقي في هذا المكان، الشهر الفائت حين زارها عدي ورشيد حاملين المال والهدايا والوقود إلى البيت، أهداها شريحة هاتف خليوي مخصصة فقط لتلقي بث الإنترنت، تتلقى بثها من دولة مجاورة ويدفع فاتورتها الباهظة هو، استخدمتها بسخاء لتحميل كتب وأفلام على هاتف حديث هدية رشيد لها.

ـ لا يمكن لأي اختراع استحضار سحر الورق، باحت بفكرتها هذه لسميحة.

ـ المدرسة، في المدرسة يوجد مكتبة كبيرة، اسرقيها، قالت المرأة وهي تلقم ثديها لطفلها المسمى شاهين.

Tele: @Arab_Books

أغلقت المدرسة بأمر من الفصيل المتطرف الذي يسيطر على المنطقة، على الرغم من بعد القرية عن مراقبة المتشددين إلا أن أحداً لم يجرؤ على مخالفة الأمر وإعادة الأطفال للمدرسة، خاصة بعد تطبيق عقوبة الصلب على مديرها بتهمة الكفر وتركه وليمة للطيور حتى خاطر عدد من التلاميذ وأنزلوه ثم واروه الثرى في قبر مخفي من دون شاهدة سوى غرسة سرو صغيرة، حدث هذا أثناء المرور الوحيد لخليفة الله من تلك القرية ولم يحدث بعدها أي أمر عنيف.

خليفة الله ذاك قتل كغيره من الخلفاء السابقين لكنه عاش لفترة مكنته من تعليق معلمين ومعلمات، ما ولّد لدى تابعيه فكرة أنه عانى في طفولته من اضطهاد أحد المدرسين وأنه كان كسولاً وغبياً من الصنف الذي تجده في آخر مقعد ملتصقاً بزاوية الجدار نائماً أو يمضغ شيئاً بالسر، كما أنه اخترع نشيداً وطنياً يبدأ باسمه وينتهي به ناسياً أن الحرب طاحون لا يستثني أحداً ولا حتى القبيحين من أمثاله.

على مواقع التواصل الاجتماعي قرأت سيرين النشيد وفوجئت بأن قريتها تعد ضمن الدولة المفترضة التي يجب على أبنائها الترنم به، ومن الموقع ذاته عرفت أن زوجها وشقيقه على قيد الحياة، لكن حيلة البطاقة الدولية توصل إليها بعض المحاصرين واستطاع البعض الحصول عليها أو تحويل خطه إلى دولي ليبث كل فترة أسماء القتلى وصور الأحياء، ظهر في أحدها نوار ويامن يتوسطهما شاب ذو شعر طويل يصل حتى كتفيه، أدهشها ازدياد التطابق بين التوأمين، هي وأمهما فقط تستطيعان التمييز بينهما، تترك لعيني الروح تسبران الملامح والوجه الذي سترغب في المسح على ذقنه الخشنة، سيكون

Tele: @Arab_Books

ليامن والآخر سيظلم كظل، أمهما ميزتهما من دون تفكيك كيفية حدوث ذلك، بكت فقط وقالت لزوجها: هذا يامن وهذا نوار.

أنهت سيرين تحميل رواية (طوارق) لكنها لم تستطع متابعة القراءة، ازدادت رغبتها في الورق، شوق أقرب إلى التمرد هب عليها، اشتاقت لرائحة حبر الطباعة، لملمس الصفحات بين رؤوس أناملها، شعرت بأنه قضيتها الأهم.

غضبت لأنها مرمية هنا وكأن حصولها على كتاب حقيقي سينقلها إلى بيتها ويعيد زوجها وقد ينهي الحرب في الوطن ويخفي الخلفاء والسلاطين.

رغبتها أشبه برغبة سجين زنزانة تحت الأرض بشرشف نظيف ومطالبته العنيدة بحقه البسيط هذا، مختصراً كل ما تريده إنسانيته بغطاء مفوح برائحة الصابون، قد يقود تمرداً لأجل رغبته هذه وقد يموت لأجلها أيضاً.

ثارت وتركت ثورتها تقودها في منتصف الليل إلى المدرسة، هي المعتادة على الهرب إليه والعودة أثناء صلاة الفجر أعادتها برودة الظلام إلى العهد السحري لعشقها واندفعت الذكريات اندفاعاً انتقامياً من القبو الذي أخفتها به كي لا تبكي.

سارت بحذاء رياضي كانت قد أحضرته لها سميحة من بين أحذية ولديها الصبيين، موضحة أن أحذية النساء صُمّمت كي تسهل القبض عليهن وتعيق خطواتهن، جمعت شعرها تحت قبعة صوف وبمنامتها المريحة من دون دثار إضافي واضعة بجيبها مفكاً وحاملة بيديها مطرقة صغيرة استعارتها من عدة (حسن) زوج سميحة ومصباحاً

Tele: @Arab_Books

ببطارية تركته مطفأً حتى تجاوزت البيوت، قطعت الطريق الذي سبرته نهاراً بحواس متيقظة وأعصاب مشدودة، عالجت البوابة الخارجية التي صرت مولولة، عجوز أجبرت على تحريك مفاصلها المريضة، فتحتها قليلاً ودخلت، قطعت الباحة الواسعة، تحركت ظلال صغيرة لقطط استقرت هنا منذ هجر المكان رواده المشاكسون، جفلت الحيوانات حين لامسها ضوء المصباح ولمعت عيونها بوميض خائف.

فتحت الباب الداخلي بالمفك والمطرقة مغامرة بالضجيج الذي صاحب تراخي القفل، دخلت البناء مستجمعة شجاعتها ومتذكرة عهداً كانت به تلج مع مجموعتها من السياح كهوفاً ومقابر أثرية، استعادت تفاصيل صغيرة صادفتها في عملها، تفاصيل كانت اختباراً لنضوجها وقوتها، استعادتها لتلهي نفسها عن صقيع المكان، قطعت الصفوف التي تركت مفتوحة، هناك على مقعد طفل ما نسي حقيبته، ربما ظن بأنه سيعود في اليوم التالي وسيعاقبه المعلم لإهماله، لم يأت اليوم التالي وغدت الأيام جميعها يوماً واحداً طويلاً بلا فصول مدرسية ولا عطلة نهار الجمعة ولا حصص مملة ولا رفاق مدرسة.

قدرت من ترتيب المكان أن أحداً قبلها لم يغامر بالدخول، ذكرى المدير المقتول أرهبت الأهالي وجعلتهم ينسوا المدرسة كجريمة قديمة يجب أن تختفي بالتقادم، مرت بالمخبر وتخطته إلى ضالتها، باب علق عليه لوحة كتب بها (المكتبة) فتحته ودخلت بتمهل، التصق قميصها الداخلي بجسدها المتعرق وألهبت القبعة الصوفية جبينها الرطب، أضاءت بمصباحها عناوين الكتب المغبرة، لم يكن لديها الصبر لتنتقي، خطفت خمسة مجلدات، استدارت لتفر من مغارة الوحش هذه لكنها عادت وأخذت كتاباً آخر من دون أن تعرف ما هو.

Tele: @Arab_Books

خرجت كاتمة أنفاسها، مرت بالشوارع النائمة وهي تعاتب نفسها لأنها لم تحضر حقيبة وتملأها بالكتب أو تتذكر حقيبة التلميذ المهمل فتستعملها للغاية ذاتها.

وصلت البيت تكاد تفقد الوعي من هول المغامرة وفرح الظفر، تسللت على رؤوس أصابعها، وقبل أن تفتح باب غرفتها سمعت صوت أمها يرتطم بالأثاث غاضباً: من هو الرجل الذي كنت معه؟

أسقطت الكتب على الأرض وغرقت بضحك مباغت كاندفاع طيور محبوسة حين فتح لها باب القفص بغفلة قفل.

* * *

Tele: @Arab_Books

(معسكر)

تلاشى الحاجز الفاصل بين الواقع والمتخيل لديه وسقطت جميع الحواجز الأخرى التي تميز ماضيه عن حاضره والزمن أصبح قطعة واحدة ملونة بألف لون لكنها واحدة، حتى الحاجز الذي جعلهما أخوين اثنين تلاشى، لقد عادا هلاماً واحداً في رحم المساحة التي حوصرا بها، هلاماً ينقل المشاعر وتتركز به الأفكار، تشاركا حبل الأمل السري والأفكار الواحدة، لم يحتج يامن ليقول: كم أشتاق زوجتي وابنتي، ليلهيه نوار عن شوقه، يكفي أن يلح الحنين متحولاً إلى صداع ليداويه شقيقه بحكاية ما أو عمل طريف أو حتى سيجارة أخفاها لمحنة كهذه.

الفراغ المتسع يجعلك تدرك ضيق المساحة التي حوصرت بها، حقيقة بسيطة توصل إليها سكان المعسكر وحولت نهاراتهم إلى عمل مضنٍ يهرب بهم من نير الحلم بحرية لعوب رائحتها القادمة مع الرسائل تثيرهم حد الجنون، تسيطر على حواسهم حاصلة بين وقت وآخر على مسرنم يسير إلى ما خلف السور نافد الصبر، فالحرية هي الحرية حتى لو كانت نهاية الحياة.

(خلف السور) هو الاسم الحركي المختصر للعدو وللمصير

Tele: @Arab_Books

الضبابي لمدينة المقاهي النهرية وللأصدقاء من سكانها الذين لا يدري بشر إن كانوا مع المتطرفين أم ضدهم وإن كانت مصادفة أحدهم تعني القتل أم النجاة!!.

لم يستطع نوار شطب عبد الله وتحويله من عازف عود إلى متطرف، لقد توقفت مراسلاتهما منذ رفض مساعدة صاحبه التي حاول مدها لانتشاله من المعسكر، اختفى اللحن الذي جمعهما ورقص عليه هو ليلة مسيرهما الأول في شوارع المدينة المنسية، في بعض الأحيان ظن أنه قتل وفاجأه الحزن المريح الذي يشيعه ظنه هذا، واضعاً نهاية لتصوراته عن شكل الحياة الوعرة التي يحياها رجل العود تحت سطوة السيف.

حاول كتابة رواية عن أمير بدوي يحب الموسيقا، حالماً بأنها ستطبع وتصل عبد الله، تصور الطريقة التي قد يجدها بها، أمضا وقتاً طويلاً في رسم المدينة بعد الحرب والنهار الصيفي القائظ عندما سيمر صديقه من أمام المكتبة الكبيرة بعد أن يعيدها السلام إلى الحياة وسيقرأ اسم (نوار) وعنوان الرواية (النهر وأمير العود)، سيعرف أنها كتبت لأجل الأيام الماضية، رأى ابتسامة الشفتين الزرقاوين وإضاءة البشرة البدوية الداكنة والشعر الغزير وقد أطلت منه بضع شعرات ثلجية، وعند هذا الحد كانت قوة غريبة تنسكب عليه غامرة كيانه وجسده الصغير، فينهض للكتابة أو يبحث عن عمل يشغله ويجعل عالمه ينبض بصوت يشبه الحرية.

تحولت المحن الحتمية إلى اختبارات استحقاق للحياة، مع شقيقه يامن انضم للمجموعة التي سارت حين انتهت مؤونة الطعام إلى الفرن

Tele: @Arab_Books

المغلق قرب المعسكر من الجهة الجنوبية له واقتحموا مستودعه بوقاحة جائع ليفرغوه من الدقيق والخميرة ويكدسوا حملهم في الشاحنات ثم يعودوا تحت وابل رصاص المتطرفين الذين بوغتوا بالشجاعة المولودة تحت الجوع.

عجن عزيز أول كيس طحين وعلى صحن لاقط انتزعه من سطح أحد الغرف صنع خبزاً بعد أن أشعل النار تحته.

تجمع الجياع حوله ورائحة الخبز الحنونة مسحت عن الجباه صداع الشوق وجعلت الابتسامات ترتسم على الوجوه، ضحكات ساذجة لرجال لم تنبسط أساريرهم منذ دهر، وحيدين بلا ظل امرأة، الخبز أحضر كل النساء إلى صباحات المعسكر، في داخل كل رجل تمطت امرأة ما وشحن الهواء بروائحهن، أخوات وزوجات، جدات وأمهات، حتى أكثرهم صلابة بدا مثيراً للشفقة بنظراته، نظرات طفل ضائع يبحث عن أمه في زحام السوق والأم هنا تعجن وتصنع خبز الجياع الوحيدين.

توزعت الأفران البدائية في المعسكر وانتزعت جميع الصحون اللاقطة لغاية أهم من متابعة الأخبار، في جميع الأحوال لم يكن هناك كهرباء لتشغيل التلفاز، لقد قطع العدو التيار في محاولة لتضييق الخناق وكل ما وجد من مولدات استخدم لشحن الهواتف النقالة وتشغيل محطة البث اللاسلكي لالتقاط موجات الأثير المحملة بمكالمات المتمردين.

استمر فرح النار والخبز شهرين متتالين ثم نفد الدقيق وانسحبت رائحة المرأة مخلفة إياهم في حيرة وجوع تعجز كميات الخبز العطن

Tele: @Arab_Books

التي بدأت الحوامة الوحيدة ترمي بكميات منه إليهم، تعجز عن إلغائه، لخبز السماء هذا رائحة عفن حامض، في الطريق إلى الأرض فقد عبقه الطيب والتصقت بأرغفته رائحة الموت والحزن المخيمة في طبقات الجو فوق المعسكر، خبز ميت فقد روحه في المحطات التي مر بها حتى وصل الحصار، سفر طويل لا تتحمله روح القمح، إذاً للقمح روح واحدة وللقطط سبع وللرجل ألف، إذاً وجدت المحطات لتستنفد الأرواح.

* * *

في النهار الذي أُطفئت به نار الخبز، قطعت يد الساقية التي تمدهم بالماء، لم تستحق صديقة الأخضر الرقراقة هذا القصاص، اتكأت على كتف البساتين القريبة جثة جافة العروق وداخل المعسكر ركضت النمال البشرية صوب فكرة تنقذهم من السحق تحت قدم الظمأ، غرزوا معاولهم في الأرض الطرية، حفروا وعمقوا الحفرة حتى انبجس الماء على عمق قريب من السطح من الينابيع المخبئة في جيوب الأرض خرج المزيج الغريب من الماء والمرار ومادة زيتية شابته بوضوح، ابتكر أحدهم مصفاة للماء وجاءت النتيجة عذوبة وارتواء، لكن الماء الزيتي المر علق في رأس نوار معيداً حلمه المنسي، تحركت نقمته القديمة وعادت الذكريات السيئة، هاجمته الصور الأولى للحصار تلك التي قابلها في لحظة ولادتها بالذهول الصامت وتخطاها إلى الحياة، لكنها أمام الكأس الزجاجي التي تطفو على مائها غلالة زيت مريبة، هاجمته بضراوة وتذكر الانسحاب

Tele: @Arab_Books

الفاشل، التفاصيل الحادة والمشاعر الصريحة الدهمائية لحيوانات تحاول الخروج من الحفرة الزلقة من دون النظر إلى المخلوقات التي خلفها تلك التي ضعفت قوائمها.

استعاد كل الانفعالات والملامح الخاصة لتلك الليلة الصقيعية، دقائق ظن بأنها مضت إلى النسيان دون رجعة، عادت بكل وضوح بتواطؤ النقمة مع حدة ذاكرته الشابة.

ليلتها هسهس الخبر كأجنحة على أبواب ونوافذ اللهفة (سوف ننسحب الليلة).

لن نضيع الفرصة يجب أن يحدث الانسحاب هذه الليلة.

استعاد الأحاسيس الخاصة بذاك الليل، إحساسه بالتخلي عن المكان الذي احتواه بإخلاص، إحساس كان ينتابه في طفولته نهار العيد حين يتخلى عن صديقه المعدم ويرتدي ثياباً جديدة بينما يرفل الآخر في أسماله، إحساس بالخيانة مع التسرع الذي لا يسمح بإطالة الندم ولا الرجوع لإلقاء نظرة وداع.

ركض مع يامن وعزيز إلى الساحة حيث بدأ المحاصرون بالتجمع، لم تكفهم وسائل النقل فمعظمهم جاء المعسكر بحذائه فقط، استطاع عزيز تأمين سيارة جلس بها معهما رفقة جنود يعرفهم، أحاط الرجال الذين بقوا من دون وسيلة نقل بالسيارات، توسل بعضهم وصمت الآخرون، عاركوا للحصول على موطئ قدم في أي مركبة، حاول عزيز حشر أكبر عدد منهم في سيارته بينما بقي هو يراقب بعينين من زجاج تلتقطان لهفة شقيقه وتألق الأمل في قلب ألف يائس.

في السيارة الملاصقة سمع الضابط يأمر حاجبه بإحضار (الطنجرة

Tele: @Arab_Books

والنارجيلة)، التفت غير مصدق وعلى عينيه الزجاجيتين انعكست نظرة الحيوان المحكوم بالموت التي بذلها العسكري الصغير حين أمره الضابط بالنزول ووضع بدلاً منه وعاء الطبخ والنارجيلة، قفز من السيارة بلا تفكير، أمسك بكتفي الفتى المرتعدتين: اصعد بدلاً مني.

لكن هذا مسح دموعه بكمه كطفل معاقب، دس يديه بجيبيه وسار بقامة منحنية إلى المهاجع وكأن النجاة لم تعد تعنيه، مشى خلفه، لحق به يامن وحمله عنوة إلى مقعده، خيم الصمت على روحه ولم يعد مهتماً بما يحدث حوله، لم يسمع حديث شقيقه عن أن الانسحاب مواجهة مباشرة مع الموت تحمل احتمال النجاة كما تحمل احتمال الهلاك بينما البقاء هو انتظاره من دون احتمالات أخرى.

غفا ملتفاً بمعطف ألقاه عليه، ضاغطاً بعمق على رغبة في القتل بدأت تطل من تربة نقمته.

عند الرابعة صباحاً استيقظ دون أن يفتح عينيه على شتائم الضابط الوغد ذاته وهو يرد على صوت قائد المعسكر الذي أذاع بمكبر الصوت خبر فشل الانسحاب بعد تسرب الخبر للفصائل العدوة واحتمال نصب كمين لقافلتهم.

كانا آخر من غادر الساحة، بقيت السيارات مركونة، فئران جمدت في لحظة فرار.

سارا معاً وفي داخل أحدهما تعاظم الشوق.

(حي على الصلاة) دعت مآذن المدينة.

أحنى يامن رأسه ثم وضعه على كتف نوار وبكى.

* * *

Tele: @Arab_Books

كلما سقطت حبة رمل في قاع ساعة حصارهم تعاظمت نقمته وبدت الحوادث أشد تحت عدسته، انغمس بالقصص التي يكتبها للموتى ملهياً نفسه عن خاطر مخيف ولدته النقمة بتواطؤ مع إيمانه بأن حصارهم سيطول، رأى الحصار في كل ما يعاش هنا، في المعارك المنسوخة عن الجحيم، في الصباحات المؤثثة بالانتظار والقلق والبحث عن الطعام وملاحقة صرر الخبز الثقيلة النازلة من السماء، في نسيان السلطان لهم وتحويل إعلامه لحكايتهم على أنها أسطورة شعبية لا مجال لإضافة فصل النجاة إلى تفاصيلها الثابتة.

الحصار يبدأ على المساحة التي تحيا عليها وينتهي في روحك، إنه يعجن البشر والتراب والهواء جاعلاً منهما هرماً واحداً لا فكاك لقطعة من دون الأخرى.

عزيز يرتل (ألم نشرح لك صدرك) على قبر صديق تاركاً دموعه تنقط على التراب المسوى وهو لا يدري أمام شجن المرتل لما لم يدرسوا فصلاً قبل الحرب يعلمهم ألاّ يحبوا رفاق السلاح بعمق، أن يندفعوا في ماديات البقاء أحياء ويخدروا عواطفهم، جميعهم هنا أغرار حتى الكهول الذين يظنون بأنفسهم الحنكة والحكمة، وهو نفسه أكثرهم هشاشة.

(فإن مع العسر يسرا) يهدج بها عزيز وهو الآن يدرك معناها، فمع القيد المسور لحياتهم ولد إحساس بأنهم معزولون عن العالم وتعاليمه ونوع من الحرية الغامضة بأنهم حكام أنفسهم، هناك رسالة في كل ما كتب حتى لو لم يكن مؤمناً في داخله.

يكرر صاحبه الآية مهدهداً ألمه على فقدان صديق، الصوت يجعله يصحو قليلاً وبصحوه يحلق فوق الحصار وحيداً ثم يعود إليه بإرادته.

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

في حضنها غفت الصغيرة مطمئنة إلى الجسد الذي لم تنفصل عنه بعد حدث الولادة، لم تكن تغفو خارج حضن أمها إلا ما ندر وكأنها أنجبتها قبل موعدها وتبغي تعويضها بإبقائها معلقة بصدرها.

في هذه الأيام تحديداً تمنت سيرين لو أنها لم تورط ابنتها في هذه الحياة الموحشة، لو أنها أبقتها في الداخل حتى تنتهي الحرب ويعود والدها.

تنتفض لأقل صوت بشري، الاشتباكات تتقدم وفي ذيلها أصوات الانفجارات والطفلة تنام نوماً متقطعاً ينتهي بالبكاء ما إن تهتز نوافذ البيت بقبضة صوت مدوٍ.

لقد توقفت منذ زمن عن محاولة فهم ما يحدث، كل ما تهتم به هو الحصار، حتى حين بدأت بضع طيارات حربية تخيط السماء برعونة فوق القرية وتنثر هلعاً بين العجائز لم تكترث ولم يعنها سوى أن ضجيجاً آخر سيضاف إلى جوقة الأصوات التي تثير الرضيعة.

تتابع أخبار الوطن من جوالها كمن تقرأ حكاية رديئة ومنها علمت أن ما يحدث في مدينتها حدث في مدن أخرى وأن هناك عساكر محاصرين بالمتطرفين الدمويين ومدنيين محاصرين في أحيائهم

Tele: @Arab_Books

بالعسكر المنضبط حد العنف وأن الوطن كله محاصر بالفقر والجوع والبرد والأحزان الثقيلة.

تحول (الفيسبوك) إلى عالم سحري يبعدها عن حزنها ويجعلها بعد أن تعود منه تشعر وكأنها أليس العائدة من أرض العجائب، حصرت اهتمامها بالمحاصرين في كل مكان من الوطن، لاحقتهم، تبعت قصصهم وصورهم، تفاصيل ما يحيونه، ثم ضاقت الدائرة وبهتت ألوان محنهم لتبقى هي وبنت محاصرة في حي قديم في المدينة التي كان يعمل بها يامن قبل نفيه، كانت تدعى (ياما).

تحادثتا طويلاً كامرأتين تعيشان ظروفاً متشابهة، لقد سلكتا طرقاً مختلفة لكنهما وصلتا للمحنة ذاتها.

ياما صلبة وقوية، رقيقة كطفل حين يتعلق الأمر بغيرها، نحيلة بوجنتين بارزتين وضفيرة قصيرة، قبل الحرب كانت معلمة وكانت تحلم بوطن بلا سلاطين وكان لديها حكاية سرية تموهها بكبرياء فضفاض، محيطة نفسها بالصور والرسوم والشعر.

ـ هل أنت جائعة؟ تسأل ياما.

ـ لا، تجيب سيرين وتضع قطعة الكعك بعيداً عنها كمن يخفي تهمة، بعض الشبع خطيئة حين يكون صديقك خلف سور ما يلم بقايا الخبز العطن ليطعمها لطفل جائع تاركاً معدته تلتهم بعضها.

تلتقيان كل ليلة على المساحة الزرقاء المضيئة، في موعد ثابت، الثانية عشرة ليلاً، تتحادثان لساعة كاملة وتختفي ياما دون تحية كسندريلا عجولة.

Tele: @Arab_Books

مضى على تعارفهما ثلاثة أشهر حين اختفت ولم تعد الليلة التالية، في غيابها تصفحت سيرين صفحة صديقتها، المنشورات القديمة والصور التي التقطتها بذكاء ورهافة محترف، قرأت وقرأت، انغرزت كلمات ياما في رؤوس أصابعها وغفت على الأريكة وحين استيقظت لترضع الطفلة علمت أن أصابعها تمردت ولم تعد ملكها وأنها يجب أن تكتب لتسترد حقها بهذا الجزء من جسدها، حقها بأصابع هي امتداد للروح تلك التي امتلكتها دائماً من دون أن تعرف مداها، بدت ياما كمن ولدت وهي مدركة لروحها ولم تضع الوقت في جدلية كهذه وفي هذا تفوقت على صديقتها كما تفوقت بفارق الجوع والبرد والخوف الثلاثي الذي لم تتذوق منه سيرين سوى الخوف.

* * *

- اقرأي لي ما تكتبين، طلبت سميحة وهي جالسة مقابل سيرين تتوسطهما طاولة صغيرة تحمل دفتراً مدرسياً وقلماً.
- اتركي ملقط الشعر أولاً واطلبي من الأطفال اللعب قرب الباب، ضاحكة ردت على طلب صديقتها الذي قالته وهي تزجج حاجبيها العريضين بملقط صغير بينما توزع الصغار قربها كصيصان جائعة.

خرج الصيصان بفرح إلى الشارع وبدأت سيرين تقرأ بوجنتين متوهجتين، بانفعال غامض وصوت متهدج كمطر يهطل على السطوح:

Tele: @Arab_Books

(كالعجلان المذعورة ركضت الدبابات في مدينتي هكذا بدت لي من نافذة بيتي في الطابق الخامس صباح ذاك اليوم المشؤوم، آلمني صوتها كطرق الموتى على حجارة قبورهم، من بطن الأرض سمعته حين وضعت رأسي على الوسادة أحاول العودة للنوم، الليلة الماضية غافلني الوقت ولم أستطع الرجوع للمنزل، خرجت في المظاهرة المسائية، تجاهلت مكالمات أمي، بعد اعتقال أبي وإخوتي بقيت لوحدها في البيت، أحزنتني الراحة التي خلفها غيابهم، لم يكونوا ليسمحوا لي بالخروج في المظاهرات وفي كل مرة خرجت اندلع شجار بيني وبينهم، ما كان يجب أن يعتقلوا، أنا التي تكره السلطان، أنا التي تصور مدينتها بعدسة عاشق يصور معبودته ليلة زفافها من وغد وأنا التي تتقدم المظاهرات مخفية أنوثتها في جيب بنطالها الفضفاض.

الدبابات تركض في شارعنا، يطرقون الباب بعنف، لقد جاؤوا لاعتقالي، في انتظار أن يقتحموا غرفتي أمسح أرقام أصدقائي من هاتفي الجوال ورسائلهم، أجمع شعري، تفتح أمي الباب، وجهها مزدحم بالحزن والغضب وبصوت كسير تقول: احملي ما تحتاجينه، لقد جاؤوا ليخرجونا من البيت، الحي سيغدو ساحة حرب، لا مكان للنساء في الحرب سوى حضن التشرد.

عبرت قربهم، خافضة رأسي واجهت أحذيتهم السوداء، لم أكن أنا البنت الجريئة، كنت حلزوناً ينسحب إلى قوقعته ويصلي كي لا يروه.....).

* * *

Tele: @Arab_Books

لم تنهِ سيرين الصفحة الأولى من الدفتر الذي ملأت نصفه حين عاد أكبر أبناء سميحة مرتبكاً وهمس بأذن أمه.

ـ ابق بعيداً، حذرته ونهضت إلى النافذة منادية أولادها.

ـ ماذا هناك؟ سألت سيرين دون أن تتخلص من الانفعال.

ـ لقد وجد الأطفال جثة في البراري المحيطة بالقرية، متمسكة بهدوئها قالت سميحة وفي الخارج ظهرت حركة بطيئة، حذرة، خرجت أم عدي من المطبخ بعد أن التقطت الخبر من النافذة المطلة على جارة أخرى، أحكمت غطاء رأسها ومشت بثبات إلى الشارع آمرة ابنتها وسميحة بلم البنات الصغيرات حتى لا يرتعبن وبإطفاء الموقد تحت الأرز بعد نصف ساعة.

ـ وسأرتدي هذا، أضافت وهي تنتعل الحذاء الرياضي الذي يعود لابن سميحة وارتدته ابنتها ليلة أحضرت الكتب، في حركاتها تصميم كمن يوشك على التورط بمغامرة انتظرتها طويلاً.

احتجزت المرأتان البنات الصغيرات داخل المنزل ووقفتا قرب الباب في محاولة لاستبيان الحدث، الرجال المسنون يتحدثون بالإشارات وأم سيرين وثلاث نساء أخريات جررن الأولاد باتجاه البرية وعدن بصمت مشكلات بقاماتهن الطويلة الممتلئة وعباءاتهن الواسعة كخيام صغيرة دائرة سوداء يتوسطها أربعة أولاد يحملون لفافة كبيرة وضعوها في دكان الحلاق العجوز الذي أغلق الباب بالمفتاح.

ـ الجميع إلى عمله والذي سيتحدث سينتهي كمدير المدرسة وإن جاء من يسأل عني قولوا له يا أولاد إن اليوم هو الاثنين، ألقى تحذيره وسار إلى بيته.

Tele: @Arab_Books

ـ من يكون؟ سألت سميحة الأم التي عادت بوجه شاحب ونظرة غائمة.

ـ إنه عسكري سيئ الحظ، ربما فر من المتطرفين، ليس به أي أثر للرصاص، لقد مات من الإنهاك والجوع.

ـ ماذا سنفعل؟ عادت سميحة لتسأل وهي تلهي أصابعها بالعبث بملقط تزجيج الحاجبين.

ـ سنواريه الليلة قرب مدير المدرسة، هاتفه الجوال معي، إنه فارغ من الشحن ليس بحوزته أوراق لكنه يرتدي سروالاً عسكرياً وقميصاً داخلياً مهترئاً لا يمكن أن يرتديه إلا جندي بائس، أجابت الأم وفتحت درجاً أخرجت منه شاحن هاتف جوال محاولة وصل الجهاز بالتيار الكهربائي من دون أن توفق بهذا.

ـ الشاحن لا يناسبه سأحضر واحداً من عندي، خرجت إلى بيتها وعادت بالشاحن، وصلت الجهاز ثم قالت: حسن سيحفر القبر إنه الشاب الوحيد هنا، تنهدت بحزن ثم وضعت كفيها الكبيرتين على عينيها وانخرطت ببكاء عصبي.

* * *

وصل الدم لحدود ملجئها، أعلن العسكري الميت عن حلوله في القرية الآمنة وكان في مقدمة موكب الدم هذا.

حفر حسن القبر وتولى العجائز والصبيان دفن المسكين بلا شاهدة قرب غرسة سرو تدل على قبر مدير المدرسة، وفي اليوم الذي غرست زوجة الحلاق غرسة سرو صغيرة على قبره عاد الاولاد الذين

Tele: @Arab_Books

خرجوا للبحث عن الفطر بجثة ضخمة جداً، حيوان ما عبث بها قبل أن يعوفها بحالة مزرية.

ـ سندفن الليلة عملاقاً، اجعل القبر واسعاً يا حسن، نبهته أم عدي وهي تربت على كتفه مانحة الرجل الصامت شعوراً جديداً، لقد شعر بأنه ينتمي إلى هذه القرية وأن ما يشده للبيوت الصغيرة والشمس الحادة أشياء غير زوجته وأبنائه، إنه مرتبط بأناسها برابط الورطة الواحدة، تشهد على هذا ثلاث غرسات سرو صغيرة ستتحول خلال شهرين إلى إحدى عشرة.

تخلى الرجل عن شعره الطويل وأسلم رأسه لمقص الحلاق ناسياً خوفه الدائم من أن يفقده بالمقص ذاته، فمنذ بدؤوا بالدفن السري شاع جو من التواطؤ الصامت حتى أكثر النساء ثرثرة ما كانت لتبوح لابنها المحارب في جيش الخليفة المتطرف أن ابن الجيران وجد جثة جندي وأن عمه السبعيني صلى عليه بحضور ثلة المسنين والأولاد وأنها وصديقاتها قصدن المقبرة السرية وأشعلن بخوراً لراحة الموتى عاثري الحظ.

وما كان بشر ليسلم الرجل الغريب حسن لسيف الموت، لم يعد غريباً، الأسرار تمزج القلوب، هي أمور حدثت لكنها لا تدخل ضمن اللغة، كل شيء كان يتم بصمت والحديث الوحيد هو ذاك الذي يقوله عجوز ما على هاتف الضحية حين تسمح شبكة الاتصالات السيئة، لأول اسم في لائحة الأسماء: تعازي لكم، لقد وجدته ميتاً ودفنته حسب الدين والشرع وصليت عليه، ثم يغلق الخط قبل أن يصله الصراخ والعويل والشتائم القاسية.

Tele: @Arab_Books

سيرين كانت تعيش هاجساً مختلفاً لا يبتعد كثيراً عن الغرباء الذين يقطنون تحت غرسات السرو.

ـ هل عرفته يا أمي؟ تلقي السؤال في الفراغ المتسع كهوة سحيقة تكاد تسقط بها.

ـ إنه غريب، تجيب الأم رافعة ابنتها من قاع الرعب بأن يكون القتيل زوجها.

ولد الخوف لدى سيرين غضباً عاجزاً دفعها باستمرار لأفعال لا ترجمة لها.

ـ حين تخافين وأنت الشجاعة ماذا تفعلين..؟ طرحت السؤال على سميحة.

ـ أتبرج وأمارس الحب وأنام عارية، خبئي خوفك حتى يعود ومارسي الحب معه بعدد الليال التي لم تنامي بها خوفاً عليه، أجابت بصراحتها البسيطة الصادمة وغرقتا بضحك ماكر.

❊ ❊ ❊

في دفترها كتبت ثم شطبت ما كتبته وعادت لتدونه مجدداً، في داخلها حنين لجوج تبعده فيعود مشوشاً على أصابعها وكلماتها، كانت قد بدأت بتدوين مذكرات حصار، لكن ليس حصارها ولا حصار زوجها وإنما حصار صديقتها ياما.

(وحين اشتعلت الأرض أنت لم تري موطئ قدميك، أغرقت بؤبؤيك بحريق أصدقائك) كتبت في أول صفحة.

Tele: @Arab_Books

لم تدرك حاجتها للتخفف من ثقل ما بداخلها حتى بدأت ترمي حملها على الورق، ناسية أو متناسية أنها أيضاً محاصرة، تعيش مأزق لا جدوى من محاولة تفكيكه.

يهاجمها الحنين فتنقم على ياما وعلى كل من أشعل المظاهرات في مدن وطنها، ياما لا تشبه شقيقيها الملتحين ولا الخلفاء، حتى أنها تظن حين تطالعها صورة صديقتها بسروال الجينز المهترئ والبلوزة الحمراء الواسعة أن خليفة المتطرفين الذي استولى على شوارع النار بإمكانه التهامها كتحلية، ذاك الذي أسلمته ياما وأمثالها الفكرة وأضاف إليها السلاح والذي من المفروض أن تكون حليفته.

ثم وبعد أن تتصفح صور تلك المدينة وذاك الحي الذي طوق تماماً وأغلق على من به من عائلات تفكر بأن زوجها لو لم يأت منفياً إلى هنا لكان ضمن القوات المحاصرة التي تكيل ليلاً ونهاراً الموت باسم السلطان والوطن للبيوت ولكل من أبى الرحيل والتشرد.

ـ لماذا كل هذا التقطيب؟ تسألها أمها في طريقها إلى المطبخ.

ـ ما أكتبه محزن، تجيب.

ـ هل تكتبين فيلماً هندياً؟ تستفسر الأم التي لا يحزنها سوى الحب في أفلام (بوليوود) وكل ما تعيشه يمنحها مزيداً من الأمل والرغبة في الحياة.

ـ أكتب حكاية.

ـ لا تقطبي، ستظهر تجاعيدك في الصورة التي ستضعينها على غلاف روايتك، تقول الأم بثقة منجم.

ـ حقاً؟ تفاجئ نفسها وهي تفكر بياما، هل تعرف هذه البنت

Tele: @Arab_Books

النحيلة أنها إن استمرت بالعبوس وهي ترسم على جدران البيوت المهدمة وتخط عليها أشعاراً بأنها ستحصل على تجاعيد؟

(هل لديك حبيب؟) قررت أن تسألها حين ستلتقيان على الشاشة الزرقاء وعلى هذا السؤال أغلقت دفترها وحملت الطفلة التي بدأت تزقزق.

* * *

لعبة شهرزاد، تسمي سيرين الساعة الأخيرة من سهرتها اليومية مع سميحة وأمها بعد أن يغط الأطفال مستسلمين لجاذبية السجادة الصوفية الموحية بأحلام سحرية، يستلقون عليها ويعدون الشخصيات المنقوشة بألوان متداخلة ثم يغطسون في نوم عميق وبعدها تبدأ اللعبة التي ابتكرتها سميحة والتي افتتحتها هي برواية قصة حبها ووصلت في هذه الأمسيات إلى تحويل سيرين لحكواتي يسرد من دفتره الذي منح لياما أبعاداً بطولية.

تحتل النساء الثلاث الأرائك الخضراء وتبدو سميحة على ضوء الشمعة أشد بهاء، شعرها يتماهى مع النور الأصفر المتراقص مذكراً بخرافة الحوريات ولا تدري سيرين لما لم تمنح جمالها لبناتها، إنهن شديدات السواد لا يضيئهن سوى أسنان ناصعة وأظافر لماعة وجدت للعراك وهذا أكثر الأفعال التي تجيدها طفلات صديقتها.

ـ حين تنتهي الحرب سأخطبها لرشيد، تحلم الأم بياما وكفاها تتعرقان كأنها تشاهد من نافذة مطبخها الحي المحاصر في المدينة البعيدة.

Tele: @Arab_Books

ـ يا سادة يا كرام، تفتح سيرين الدفتر.

ـ يا سيدات يا كريمات، تصحح سميحة فتزورها الأم بطرف عينها.

ـ إذاً وبعد أن اقتحموا بيتنا... تبدأ سيرين حكايتها على لسان ياما مرجعة التاريخ بأصابعها كمن ترجع عقارب ساعة.

ـ إلى أين يا أمي؟ سألتها.

ـ سنذهب إلى بيت جدك لكن قبل هذا سنجمع ما نحتاجه بسرعة ونستحم قبل أن يعودوا، أجابتني ملقية أمر الاستحمام بارتباك غامض.

ـ نستحم؟ سألت نفسي وأنا أوضب أوراقي في حقيبة صغيرة مع بضعة قمصان وسروالين، تلكأت كي لا أستحم بينما اغتسلت أمي بعشر دقائق وخرجت وهي بكامل ثيابها ملقية بخمارها على شعرها الأشيب.

ـ لِمَ أستحم؟

ـ لنموت على وضوء طاهرتين، قالت من دون أن تجفف دموعاً نزلت على خديها المنطفئين وفكرت بأنني لطالما حلمت بالاستحمام لأجل رجل يحبني لا لأجل الموت وعادت إلى ذاكرتي تلك القصص المرعبة المقرفة عما يحدث للفتيات في المعتقل، قيدني الخوف بسلاسل حديد ورغبت في الهرب، رغبة متعبة بدأت تراودني وبدأت حرباً عليها.

ـ لن أستحم، قلت لأمي بحزم، لن أستحم لأجل السجان ولن يكون رجلي الأول، قررت نافضة الخوف الذي قيدني.

خرجت مسرعة من البيت بينما لثمت الأم الجدران واحداً واحداً، تركت الباب مفتوح رأفة به من الكسر، قبلته ومسحت بكفها التي

Tele: @Arab_Books

ترتدي قفازاً أسود على تجاعيد خشبه ولحقت بي مسدلة خمارها على كامل وجهها ورائحة شعرها المبلل تنشر بيننا شذى صابون الغار الواضح.

هل سينسى الباب أمي؟ وهل سيخونها مع جنود السلطان؟

مررنا قربهم وسمعت سخريتهم من خمارها، غذذنا السير قرب الدبابات والعسكر وصور السلطان وشعرت بأن وطني احتل بين ليلة وضحاها.

تلك الليلة خرجت بالمظاهرة مع جدي، تلك الليلة لم تنهرني أمي ولم تلقِ على مسامعي درساً عن فضائل الحجاب، لقد علمت في الطريق وهي تشد على أصابع كفي الممسكة بكفها أنني خلقت بروح سافرة لا مواربة بها وأن الأرواح المنقبة لا الأجساد هي التي تغري الوحوش بهتكها.

* * *

ـ أحقاً اسمها ياما؟ سألت سميحة وهي تشعل شمعة أخرى.

ـ إنه اسمها الحقيقي بينما نحن جالسات هنا يتعرض حيها لألف قذيفة.

ـ فلينجها الله، همست الأم وأصلحت جلستها.

ـ لكنك قلت إنها خرجت من بيتها وحيها هل عادت إليه؟ عادت سميحة لتسأل.

ـ أشعر حقاً بأنني حكواتي في مقهى، انتظري الحكاية لا تتعجليها.

Tele: @Arab_Books

ـ أكملي، قالت الأم واضعة حداً لأسئلة سميحة.

قربت سيرين الدفتر من الشمعة وعادت للقراءة:

بعد خروجنا من المنزل ازدادت حدة الاشتباكات بين مسلحينا وبين جنود السلطان، لا أدري كيف أراهم!! إنني أمقتهم بالتطرف ذاته الذي أعشق به مدينتي.

لم أعد أستطيع الوصول للمدرسة حيث ينتظرني طلابي، في الشارع الذي تقع به عمت المداهمات ونزح السكان، المظاهرات... المظاهرات... عدستي وصفحتي على الفيسبوك حيث بدأت أدون أحزاني وأنشر صور مدينتي، تمددت حياتي لتصبح أقوى وأكثر غزارة من حياة فتاة عادية كانت قبل وقت قريب معلمة في مدرسة ابتدائية.

شعرت بأني أقوى على الرغم من الخوف الذي لازمني طوال عمري من الأصوات القوية واستمر من دون أن يلغيه اعتياد مدينتي على الرصاص والقذائف.

ثم ذات يوم وجدت نفسي بين احتمالات حادة، كان الرفاق من طائفة السلطان قد أبعدوا عن تجمعاتنا ومظاهراتنا وخطف مسلحونا حافلة ركاب كاملة وأعدموا كل من بها كرد على قتل سجنائنا.

أغمضت إحدى عيني، لم أشأ رؤية أخطاء أهل مدينتي الحقيقين، لم أشأ الاعتراف بوجود غرباء ملتحين بيننا، كنت وسأبقى مؤمنة بأول مسيرتنا، هنا في قلبي أول هتاف وأول قطرة دم أريقت على إسفلت شارعنا، هنا في قلبي بيت طفولتي الذي اغتصبه العسكر، سأعيده نعم سأعيده لا يعيد البيت سوى نسائه.

* * *

Tele: @Arab_Books

ـ لماذا يكرهونه؟ ولدي رشيد وعدي وهذه البنت ياما؟ سألت الأم بسذاجة طفلة.

ـ كنا نعيش بهدوء، لماذا أرادوا تغيير ما نحياه لقد ازداد الأمر سوءاً، تذمرت سميحة، لكنني أحب صديقتك هذه، أضافت.

ـ لا أدري ما هو الصحيح، ولا أستطيع معرفة ما حدث، إنني لا أفهم السياسة لكنها فعل داعر لا جدوى منه ولا متعة، لقد كنت سعيدة جداً مع زوجي وفي عملي كنت أشعر بأننا على ما يرام، كان هناك فقر وإهمال لمدينتنا لكن الحال ازداد سوءاً، كانوا يدفنون مخلفات سامة في صحرائنا ولكنهم الآن يقصفون بها الصحراء ذاتها، الملتحون ليسوا أفضل من السلطان، اللعنة على الاثنين، إنني أشتاق لبيتي، اللعنة على الاثنين، عضت سيرين شفتها، أغلقت الدفتر معلنة انتهاء السهرة.

حملن الأطفال إلى الدار المجاورة وما إن دخلت الأم وسيرين إلى المنزل حتى عاد التيار الكهربائي، نفخت على الشمعة، وبعد دقيقة انطفأ الضوء مجدداً، في لعبة تستمر عادة لأيام يأتي بها التيار ثم ينقطع عشرات المرات المتتالية، شتمت سيرين ببذاءة مقصودة ولم تردعها أمها بل ضحكت بفتور.

ـ اشتمي، اشتمي هذا حق مشروع، اشتمي، أن تحافظي على تهذيبك في زمن مبتذل هو ابتذال.

* * *

Tele: @Arab_Books

(معسكر)

توقف الرصاص والقذائف لا يعني توقف الموت، خلال الشهور الماضية نقص عدد سكان المعسكر مئتين وواحداً وخمسين وزادوا واحداً غير مرئي لكنه موجود بإلحاح طاغية، يسير بينهم مقتاتاً من أعصابهم، إنه الموت، النزيل المميز للسجون وساحات الحرب، في بعض الوقت كان لوجوده ظل عادل وفي معظمه بدا شديد الظلم والقسوة.

ـ وأنت محاصر لديك من الوقت ما يكفي لتفسير مزاج الموت، قال نوار لنفسه وهو يسير مبتعداً عن آخر موقع ظهر به ظل القصاص العادل، خشية أن يناله جزء من العقاب عن أمر ما قد يكون قد ارتكبه ونسيه.

سار باتجاه النقطة الطبية من دون أن يلتفت خلفه، موقناً أن الضابط الذي سحقه كيس خبز يزن مائة كيلو قد قضى نحبه إما بتأثير كسوره وإما أن المجند الناقم قد تولى إكمال المهمة.

حلقت طائرة الهليكوبتر الصغيرة على ارتفاع عالٍ بين الغيوم، لاحق الرجال صرر الخبز الضخمة، الارتفاع الشاهق يحول الثقل الكبير إلى طائرة ورق تعبث بها الريح.

Tele: @Arab_Books

سقطت إحداها في الساقية وهذا يعني نقصاً في الطعام وأخرى حادت ولاحقوها بدعاء كي لا تصل إلى خط العدو، وقف نوار ينتظر متابعاً عبث الحمولة مع الاتجاه، قريباً منه كان الضابط صاحب النارجيلة والمجند ذاته الذي تخلى عنه ليلة الانسحاب الفاشل.

حدث الأمر بدقة مذهلة، لاحق الكيس الضابط الذي حاول تفادي وقوعه تحت الوزن القاتل من دون جدوى.

ذهل نوار بين السماء التي تتصرف بغرابة وبين النملة المسحوقة تحت حلم المحاصرين الصباحي بفطور، لكنه حين رأى حالة الضابط والبريق الوحشي في عيني المجند عرف أن وجوده لن يجدي فقد حانت ساعة موت الرجل.

حدق بالوجه الذي علاه اللون الأزرق والعينين المذعورتين، أدار ظهره ومشى ليخبر الطبيب كي يسعف المصاب تاركاً إياه في عهدة قاتله.

ـ من سيرث النارجيلة؟ سخر ببرود غريب عن طباعه شاعراً بالقسوة واللامبالاة تسربل تفكيره.

تلك الليلة دفن الضابط ولم يستطع قلمه كتابة سطر واحد يزين الموت القبيح بحكاية بطولية تهدى لأسرة الميت، كتب ببساطة أن المتوفي وجد الموت تحت مائة كيلو خبز سقطت من ارتفاع مماثل لوزنها، لم يستطع إغداق حزنه عاد لحجمه كبشر عادي من دون أجنحة، العدالة أيضاً مقص يعمل من دون رحمة حين يتعلق الأمر بمخيلة.

* * *

Tele: @Arab_Books

(لتكتب عن الحصار يجب أن تعيشه ولكن لتعزفه فالأمر مختلف، إنك تفتح ثغرة في سجنك، إنك تتسلق الضوء، إنك تعتلي سقف الكون وتراقب النجوم بينما عالمك يغط في أسره مكبلاً بالحديد.

العود ملفوف بوشاح الأم، أعزف ببطء، البياتي يخرج واضعاً كفه على فمه، نغم صامت، يرقص الدم في جسدي، أشد العود إلى حضني وأحلم بامرأة ما، امرأة لم تعد موجودة، جارتنا التي أخذوها عنوة ليلة أمس، صراخها، صراخ المغتصبة عقاباً على أمر ارتكبته يخرج مع النغم المكتوم، قيحاً آلمني حبسه، عاجز أنا ومتعب.

كعب حذائها الأسود الرفيع يطرق إسفلت الشارع ويوقظني صباحاً، أتخيلها ذاهبة إلى عملها، أستحضرها في سريري، امرأتي الأولى لي هي كل صباح، أمتلكها في خيالي بين الأغطية الصوفية، أكبر.. أكبر.

وتطول قامتي، لم تعد تحضر إلى سريري، خيالي لم يعد يريدها، تزوجت ورحلت إلى حي آخر، ثم يوم امتلك المتطرفون مدينتي سمعت طرق حذائها، عادت إلى الدار المجاورة، عادت بعد مقتل زوجها.

تقول أمي إنها ما تزال جميلة رغم أنها بلغت الأربعين ورغم حدادها.

وأنا أعزف كل ليلة، أغمض عيني ويتحول عودي إلى أنثى أربعينية بشعر أسود يغطي ظهرها وقامة نحيلة وعينين ضيقتين وشامة تتوسط أعلى شفتها العليا، تجلس في حضني وتتأوه على مرأى من النغم.

Tele: @Arab_Books

شعرها يداعب وجهي، عبيره يخترق حواسي، تميل بجسدها أكثر، كفاها يتعرقان على ظهري، أبلغ الرعشة وأنا مغمض العينين وحين أفتحهما أجد الفراغ، لا شيء سوى ما صنعه شيطان الخيال، أنتحب بصوت مسموع، البكاء هو الصوت الوحيد المسموح تحت وطأة السيف).

وبهذا بدأ عبد الله رسالته الطويلة لنوار، كتب في آخرها أنه يثق به لعدة أسباب باردة وأن الأمر لو كان ورقاً لمزقها وتراجع لكن ضغطة زر وجدت فقط للمترددين أمثاله هو عبد الله.

وكان الأمر حدثاً نادراً في الجمال، رسالة من خلف السور وصلت بطولها كله إلى نوار، دونها على الورق، هو لا يثق بكل حداثات العصر، الورق وحده جدير بحفظ مشاعرنا.

* * *

السرير الحديدي والسقف المرتق القبيح، أغطية الصوف الخشنة كإبر حشرات دقيقة وثرثرة الرفاق العصبية، موجودات تمنى لو يلغيها، أراد حقاً إلغاءها، دعاها بهارات الجحيم.

جزء منه أبى الانخراط بالحصار، ذات الجزء الذي لطالما بث في لياليه الأحلام الممنوعة وورط قلبه في عشق امرأة تكبره، الجزء الذي يجعله ينتظر رسائل عبد الله ويمنحه عذابات أكبر من الجوع والبرد والخوف والحنين، يجعله يمقت السلطان ويعيش بين رجال يدينون بالولاء له، بسبب هذا الجزء إنه لا يعد الأيام، إنه لا يفكر بالحلول التي تنتهي خلف المعسكر، إنه يلغي ضيق تنفسه فقط بقصيدة ورسالة

Tele: @Arab_Books

وكتاب وتخيلات حلوة عن زمن مضى وزمن قادم، وفي الصباحات التي يستيقظ بها شاعراً بوخز أغطية الصوف مؤلماً أكثر من المعتاد ويرى وجه شقيقه غائماً أكثر من سماء كانون الثاني، تأتيه ذكريات طفولتهما، رقعة الشطرنج الخضراء والسوداء التي لوالدهما، رائحة المخمل النفاذة الحامضة الذي تنتعله حجارتها السوداء والبيضاء كي لا تنزلق، كان يتنازل عن البيضاء ليامن ويبقي لنفسه الداكنة، وكلما هزم شقيقه تبادلا اللونين فالحظ مع الأسود، ثم يرى الشارع الملتوي الذي يقود إلى تل القرية الأجرد.

كم هو مترف هذا الجزء ونابض، يفكر محتجزاً قدميه الصغيرتين بحذاء عسكري مغبر، يجب أن أنزع ضرسي المنخور، يضع كفه على خده ويخرج باحثاً عن عزيز الذي يعرف جميع حيل العجائز.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

(إني أختنق... قناع التراب الذي هو جسدي يأبى نفاذ الهواء إلى روحي).

بهذه العبارة الشبيهة بصراخ من دفن حياً عادت ياما لمراسلة سيرين.

ـ ماذا حدث؟ تكتب بلهفة وهي ترضع صغيرتها.

ـ كنت أجمع بقايا الطعام من إحدى العمارات حين فتحت أبواب الجحيم بمائة صاروخ وانهارت الجدران، كنت في الداخل وأصبت، صرخت ولم يسمعني بشر، زحفت على بطني وساقي المصابة ترسم طريقاً من الدم، جاءت القطط ولعقت الطريق وخفت، خفت جداً أن تأكلني كما أكلها جياع حيي، بقيت ثلاثة أيام لوحدي، وبحث عني الأطفال وقبل أن تفر روحي وجدوني وحملوني على باب مخلوع إلى الدير، بين الحياة والموت ألقوني على سرير راهب وتركوني بعهدة الأب.

ـ احكي لي، تطلب سيرين برجاء حزين.

ـ من حيث توقف البوح أم عن إقامتي في الدير؟

ـ من حيث تشاء ذاكرتك.

* * *

Tele: @Arab_Books

طوال الطريق من بيت سميحة إلى السوق كانت تسأل نفسها ماذا دهاها؟

وهما تسيران بعباءتين سوداوين وتختلطان بنساء القرية المنتشرات بين المحلات القليلة وبسطات الخضار الغنية ظل السؤال يدق باب عقلها لجوجاً مزعجاً.

قبل نصف ساعة كانت سعيدة ومتحمسة لسهرة الليلة وقررت تحضير طعام الغداء ببذخ، ولهذه الغاية وضعت بحقيبتها الجلدية الصغيرة بعض المال مما أحضره عدي في آخر زيارة له.

ـ ماذا بك؟ سألتها سميحة.

كيف بإمكانها الحفاظ على مزاجها الماكر المرح وهي لا تملك إلا ما يبيعه زوجها من خضار حديقتهما وألبان أغنامهما الثلاث النحيلة، ضبطت سيرين نفسها وهي تفكر بلؤم لم تعهده سابقاً بطباعها، لم تكن يوماً لئيمة.

لم تكن يوماً حسودة ولا حتى امراة عادية تثيرها الأمور العادية، ربما السبب هو العباءة فهي في البيت لا تفكر هكذا، ترتديها العباءة، إنها تبدو جميلة بها هذا ما أخبرنها به بنات صديقتها حين رأينها اليوم، لكن في داخلها تتمطى امرأة قبيحة تستعد للاستحواذ عليها.

ـ لنشتري مشمشاً مجففاً وزبيباً، أنت تحبينه، قالت بنية تسديد لكمة إلى وجه القبيحة التي تملكتها منذ نصف ساعة، منذ سمعت غناء حسن زوج سميحة وهي تقف قرب الباب وقبل أن تطرقه أتاها صوت الرجل يغني لامرأته، لشعرها الطويل كخيمة

Tele: @Arab_Books

عطر وبشرتها البيضاء المضيئة كقمر مرح، لضحكتها الشبيهة بانفراط اللؤلؤ على درج البيت، يغني لأمومتها لخصبها.

رجل يغني لامرأة، قرأت عن هذا لكنها لأول مرة تراه، تسمعه وتكون شاهدة عليه.

لا يشبه ما يغنيه المطربون للموديلات الأنيقات في التلفاز، لا يشبه قصائد البدو المتكتمة التي تغطي الحبيبة بعباءة رمل وذهب، إنه الوله ولا اسم آخر لما سمعته.

الوله... هو من يمنحها كل هذا الفرح، القدرة على منح السعادة لكل من يحيط بها، هو من يهبها هذه القوة التي تخب بها في الحياة، هو من يرش مشيتها فتستحوذ على كل الهواء المحيط بها وهي تسير بعينين شديدتي الاتساع وابتسامة لا تخمد.

الوله...لم يسعفها الوقت لتعيشه مع يامن، إنها تشعر بكونها محض مراهقة معروقة أمام وفرة سميحة، إنها تشعر بالضآلة وكأن أحدهم قد قص ظلها.

امرأة بلا أبعاد خرافية هي لأم وحسد فقط.

سميحة تبدو تجسيداً للآلهة الأم حتى حين تصفع إحدى بناتها بكامل كفها الضخم تبدو جميلة، حتى وهي تنزع الشعر الزائد عن جسدها وحاجبيها تبدو جميلة، الفعل الذي تقوم به بمرافقة أم عدي بلا خجل بينما تتوارى هي داخل الحمام لاعنة الفحش النسائي.

ـ ربما لأجل هذا أكتب، همست وهي تضع المشمش في الميزان.

ـ هل ستقرأين لنا الليلة؟ سألتها سميحة كمن سمعت همسها.

Tele: @Arab_Books

ـ نعم، أجابت باقتضاب جاف.

ـ أحبك جداً وأحسدك، أنت باهرة الحسن حين تقرأين، قالت وأحاطت كتفي سيرين بذراعيها.

* * *

وكأني جدار تحيا على مساماته عريشة عنب وكائنات اللغة الكريمة، وكأن حقيقتي تغطيها العناقيد، أنا جدار لكني اليوم كرم عنب وفي كل ليل تعتصرني صديقاتي الحالمات.

أمي وسميحة وبناتها الثلاث ورضيعين هما ابنتي حلم وشاهين.

زوجها وابناها اللذان يقتربان من المراهقة يبقون في البيت المجاور، لا أدري ما يفعلون أثناء سهرتنا لكن في الآونة الأخيرة اجتاح القرية الخوف من تجنيد الفتية والأطفال الذكور في جيش الخليفة المتطرف، ربما يعد حسن ولديه للفرار، ربما يعلمهما أصول طائفته المتحررة التي وصل إلى زعامتها مهندس أنيق يسكن في دولة أوروبية كي لا ينقلبا إلى متطرفين قاتلين إن حدث ما يخشاه، يرسم لهما طريق البيت في حال تاها، يجعلهما يحفظان غيباً عناوين أقربائهما في تلك الجبال كي لا يتورطا في جريمة قتل جدهم لوالدهم أو اغتصاب ابنة عمتهم إن وصل جيش التطرف الدموي إلى هناك، يعودهما على الاهتمام أحدهما بالآخر، يدربهما على التكتم اتجاه وجوده إن حدث وجاء من يجندهما فيجب أن ينسيا والدهما ويقولا إنه مات، أن يتقنعا بالسواد ويحافظا على ما بداخلهما أبيض.

القرية بالنسبة لي سجن مترف، شقيقا المحاربان في جيش الخليفة

Tele: @Arab_Books

يمداننا بالمال، لا أعرف ما يفعلان!! لا أريد أن أفكر، إنني أُقصي الحقيقة في زاوية مظلمة من إدراكي كي لا أموت كمداً، لكنهما بعيدان عن زوجي وهذا عزاء الحمقى.

في زياراتهما يخفيان الأسلحة في صندوق السيارة كي لا أراه ويحاولان الاستحمام قبل أن تراهما أمي.

ـ لا أحد يدخل بحربه وسلاحه ولا بحذائه إلى بيتي، بهذا الشرط تدير بيتها.

أنظر في عيونهما ولا أحول نظري عن اللحيتين ولا الأيدي التي أشعرها تكاد تشي بما فعلاه.

ـ لم أقتل بشراً، إنني مجرد حارس وما تنظرين إليه هو أكثر من سيشي بما مررت به من دم، عيني يا أختاه، عيني، يدي لم تفعلا جرماً، قال لي رشيد وهو الأصغر والأقرب لعمري حين لاحظ تهربي من تفاصيله وتدقيقي في عينيه فقط.

عدي بات أشد خشونة واكتمل العملاق في جسده، صموتاً نفوراً، يأتي لساعة أو ساعتين ويغادر إن جاء وحده دون رشيد متحاشياً النوم في البيت، بهيئته الجديدة تسلط وبصوته نبرة من اعتاد إصدار الأوامر، أنكمش في حضوره وكأنه ليس هو.

الأرض الصلبة التي وثقت بها تميد تحت قدمي كموج رملي وكل ما اعتدته، أحببته، أثثت به عالمي بدأ يتهاوى، لم يبق سوى أمي وزوج بعيد وكائنات اللغة النبيلة التي تعربش وتمتد مشكلة هيكلاً يغلفني، يعوضني عن نفسي.

* * *

Tele: @Arab_Books

عقوبة استخدام الإنترنت والكتابة هي الإعدام، قرأت سيرين الخبر في صفحة تتحدث عن تنظيم الخليفة أثناء اقترافها لهذه الجريمة بالذات وأعادت قراءته أمام جماعة (شهرزاد) اللواتي أقسمن أن لا يبحن لبشر بما يحدث هنا كل سهرة، أشدهن خوفاً كانت البنات الصغيرات الثلاث.

لكن ما إن أزفت ساعة الحكاية حتى افترشن السجادة الخضراء أمام سلة صغيرة مملوءة بالمشمش الذهبي والزبيب الشفاف وطالبنها بمعرفة مصير (ياما).

ـ يا سيدات يا كريمات، فتحت سيرين الدفتر وبدأت تقرأ وقد مدت ساقيها ووضعت وسادة صانعة بهذا سريراً هزازاً لطفلتها النائمة.

* * *

المدينة تحترق ولم أعد أستطيع إبعاد العدسة عن عيني، مشدودة بقوة الانتحار لصور الدمار، أقطع شارع القناص هرولة، الكاميرا معلقة بعنقي، تضرب بطني وكأنها تريد الدخول، أنا حبلى بالصور، بروح مدينتي، لم يمسني بشر، أسمع لهاثها قربي تنفس يواكب نفسي الضعيف، أنظر إليها، خرائبها تهمس لي: ياما.. لا تتركيني يا ابنتي.

ـ لن أتركك يا مدينتي، يا أمي.

رصاص... رصاص، أغمض عيني وأدندن بأغنية أحبها، غناها لي أحد تلاميذي حين استطعت الوصول إلى المدرسة بعد غياب.

تقع مدرستي في أحد الأحياء القديمة، الكثير من الجدران الأثرية

Tele: @Arab_Books

السوداء والكثير من التاريخ يئن كمتسول تحت السماء الرمادية المحملة بالغضب.

أغني.. أغني وحين أتعثر ببقعة دم طازج يتحول غنائي إلى دعاء... يارب يا إله الشوارع والبيوت والبشر الخائفين، يارب يا إله مدينتي أنقذني، بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

لا يفهم بشر لماذا ما زلت هنا!! يسألونني قبل كل مظاهرة إن كنت متأكدة مما أفعله؟

ـ مؤمنة بما أفعله، أدع قلبي يجيب شاعرة بأني أزف لحبيب العمر وأمنح موافقتي للشيخ الذي يعقد قراننا، أنا متزوجة، حبلى، عاشقة، متيمة، مولودة، للمكان الذي هو مدينتي وما دام أهلها قد قرروا الثورة فأنا معهم.

إنهم على صواب مهما حدث، أحتمي بالأطفال، أحيط نفسي بهم ففي داخلي بدأ يطل ذاك الخوف الغريزي من الوجود بعيداً عن عائلتي بين أناس بدأ العنف يغزو أفعالهم.

أرى السلاح يلمع وأعلم أنه في القبو المجاور لبيت جدي تحدث أمور غامضة، أقول لنفسي: الأخطاء تحدث وفي كل ثورة هناك عنف، ثوارنا ليسوا المهاتما غاندي.

لا أريد سوى الأطفال وبكاميرتي أوثّق احتضار مدينتي كل ليلة ثم قيامها من الموت كل صباح.

تشتد المعارك وتتحول إلى قتال الشوارع، إلى أعنف ما قد يصله خيال بشري.

لا مكان للنساء يقول منظم المظاهرات.

Tele: @Arab_Books

أحمل كاميرتي وأدخل المدرسة، أجلس على المقعد الأخير لأكثر تلاميذ صفي شغباً.

تتملكني شياطينه الحلوة، هذه الليلة يا أمي لن أعود، لا تنتظريني خلف النافذة وقولي لجدي أن يصلي لأجلي، لأجل مدينتنا، سأبقى هنا في قلب المعارك، في الشوارع المحظورة، إنها شوارعي ولا يقرر بشر غير أبنائها إن كانت محظورة أم لا.

أنام على المقعد، تختلط أصوات الانفجارات بصراخ غريب ثم هدوء... هدوء.

صوت المؤذن (حي على الصلاة، حي على الجهاد).

أصحو مدركة أكثر من أي يوم آخر بأننا بقينا وحدنا (حي على الجهاد) إنه أمر خاص لنا فقط كطائفة، لقد خرجوا من الدائرة وبقينا وحدنا وهذه المرة رأيت الحقيقة، أعجبتني أم لا إنها الحقيقة.

أصبحت الثورة شأناً دينياً، بالنسبة للبعض هي على هذه الحال منذ البداية.

لكنها بالنسبة لي دفاع عن مدينتي وحريتي والله في قلبي، إنني جزء منها.

من المقعد الأخير العائد لأكثر تلاميذي شقاوة قررت البقاء لأجل الأطفال والجرحى والضحايا، لأجل البيوت المهجورة سأستمر بالسير على الدرب التي اخترتها.

* * *

Tele: @Arab_Books

أنت ترتكبين ثلاث جرائم في واحدة، قالت سميحة.

هزت سيرين رأسها موافقة، مفكرة بأنها بما تكتبه تدافع عن عدوة للسلطان وبفعل الكتابة تنتهك قوانين الخليفة المتطرف والجريمة الثالثة فهي تقوم بها ضد زوجها شخصياً كجندي محاصر وهي تمجد امرأة تمثل السبب الواضح خلف محنته.

شعرت بالاختناق وبأن الهواء قد ثقل حتى غدا فولاذاً.

وضعت طفلتها وخرجت إلى السطح، استنشقت الهواء ملء رئتيها لكنه كان ما يزال ثقيلاً، الفولاذ في رئتيها، فكرت وجلست على الأرض.

ـ لا يمكن أن يكون ما أكتبه عادلاً، قالت بصوت مسموع.

لا داعي لأن أبرر وجودك بين قتلة يا صديقتي ولا زواجي من عدو قبيلتي وإخوتي، أنتما محاصران وأنا محاصرة، امنحاني الإذن لأكتب شيئاً حراً من الذنب.

إنها الحرب، امنحاني الإذن لأنجو بإنسانيتي بما أكتبه.

اعتبراني ألهو متحايلة على الوقت، لا تأخذا ما أكتبه على محمل الجد.

إنني محض دليل سياحي تاه من دون ذاكرته، إنني وحيدة.. وحيدة.

* * *

Tele: @Arab_Books

(معسكر)

داخل المعسكر أصبحت الاتصالات حلماً شبه مستحيل، منذ شهرين كاملين لم يصل نوار سوى رسالتين من عبد الله، الثانية كانت سرداً عما يعيشه الآن هو ورفاقه، لقد أسسوا تجمعاً سرياً يضم عازف العود والحكواتي ورساماً وصاحب محل لبيع الأفلام والكتب، إنهم يلتقون بسرية مطلقة، يضعون خططاً لإنقاذ المثقفين والشعراء وتهريبهم خارج الوطن، إيصالهم لبر آمن، ينجحون عشر مرات ويخفقون مرة واحدة.

ـ كان يجب أن تكون معنا، مكانك محجوز في تجمعنا، ينقصنا صحافي يرقص كمجذوب، يجب أن تكون معنا، يمازحه عبد الله في آخر الرسالة.

قرأ رسالة صديقه مرات كثيرة وفي كل مرة تنازعه شعور مختلف، إحساس بلا جدوى وأنه لا نفع منه هنا، الحياة تسير بموازاة وجوده، الحياة التي خلق ليعيشها، المغامرات التي تستحق الموت لأجلها، مغامرة إنقاذ شاعر من السيف، مغامرة تهريب طبيبة شابة إلى مدينة آمنة، مغامرة تهريب سلاح إلى المقاومين الأحرار، مغامرة لمس المرأة التي يعشق وعند هذه الفكرة دوخته رائحة قادمة من ذاكرته، رائحة شعرها التي اختزنها في قارورة رغباته، يود لو يكتب لها: لِمَ

Tele: @Arab_Books

كل هذا البعد؟ ولِمَ في البعد ازدتي جمالاً، لِمَ في غيابي يفوح شعرك؟

هل تشعرين بالحسرة على جسدك المتروك وعلى ابتسامتك المضيئة؟ هل ستبذلينهما لغيري؟

وبدلاً من كل هذا اللؤم والغيرة كتب (اشتقتك يا بنت).

(أكبر في غيابك، أتقدم في العمر، لقد تجاوزت الثلاثين بعام كامل الأسبوع الماضي، ألن تأتي يا نوار، إنني أخاف من كل كوابيس النساء التي تراودني بدونك، وإن انتظرتك ولم تأت، وإن أتيت بكل شبابك، شباب الخمسة وعشرين ربيعاً فهل ستقبل تجاعيد عيني، (آه يا نوار آه يا نواري) وصلت رسالتها وغابت شبكة الاتصالات بعد دقيقة واحدة.

انتظريني.

سأعود..

لكن عليك الانتظار طويلاً!.

انتظريني حين يأتي المطر الأصفر بالحزن.

حين يكنسون الثلج.

وحين يكون الجو حاراً.

انتظريني حين الآخرون لا ينتظرون.

متناسيين البارحة.

انتظريني حين لا تأتي الرسائل من بعيد.

ومل الجميع الانتظار.

انتظريني.

سأعود.

Tele: @Arab_Books

لا تتمني الخير لشخص.

يعرف غيباً أنه حان وقت النسيان.

لتصدق الأم والابن.

إنني لم أعد حياً.

ليكف الأصدقاء عن الانتظار.

ملتفين حول النار.

يشربون قطرات الخمر المرة نخباً لروحي.

لا تسرعي بالشرب معهم لأجل موتي.

لا تسرعي!.

انتظريني.

سأعود رغم كل أنواع الموت الزاحف.

وليقل الذي لم ينتظرني: حالفه الحظ.

لا يفهمون كيف الذين لم ينتظرونهم.

كانوا وسط المحرقة!.

شكراً لك!.

كيف عشت؟

لن يعرف أحد غيرنا أنا وأنت.

ببساطة أنت عرفت كيف تنتظرين.

مثلما لم يعرف أحد.

* * *

Tele: @Arab_Books

عادت قصيدة سيمونوف إليه بإرادتها، باذلة جهداً بسيطاً بسيرها من الامتناع إلى الذاكرة بتحريض من رسالة حبيبته، قرأها على يامن وعزيز مطرقاً رأسه وكأن الورقة المصفرة التي وجد بها مقطوعته المفضلة بها منذ سنوات وكأنها أمام عينيه، لقد علق قصاصة الجريدة فوق سريره، عاد ذات يوم من سفره ليجد أمه قد نظفت الجدران والغرفة، بحث عن الورقة لكنه لم يقلق، لطالما وثق بذاكرته، لكن الخيانة أتت من الكلمات، امتنعت القصيدة بإرادتها عنه وعادت حين شاءت هي، الذاكرة ملكك والكلمة ملك نفسها.

ـ بدل القهوة المرة يحتفلون بالميت بنبيذ مر!! علق عزيز.

ـ سنعود أحياء لن نخذل من ينتظروننا، قال يامن بتأثر جاهد ليخفيه.

ـ والمعدة!! ماذا عنها، إنني جائع وأحلم بطبق بيض مع الطماطم، حلم حقيقي يزورني فيه البيض ويخبرني أنه اشتاقني، قالها عزيز ساخراً بمرارة.

ـ لقد حولنا إعلام السلطان إلى أبطال، لِمَ لا يبذل المزيد من الجهد لتستمر الأسطورة؟ إن متنا جوعاً سيخسر.

ـ لا أريد أن أكون بطلاً، أريد البيض، غرق عزيز بضحك مشاكس ناقلاً عدواه إلى صاحبيه، ضحكوا، ضحكوا حتى طفرت الدموع من عيونهم.

ـ الضحك يجعلني أشد جوعاً، لنبحث عن شيء نأكله، قال يامن ونهض.

زرعوا في وقت مضى بذور طماطم وخضار أخرى وصلت في طرد أرسلته أم عزيز.

Tele: @Arab_Books

زرعوها في ثلاث عجلات ضخمة وجدها يامن في مكان مهمل، في الليل يدخلونها إلى الغرفة وفي النهار يعيدونها إلى الضوء.

حين سقطت العلب من السماء وحمل نوار الطرد المعنون باسمه واسم شقيقه وعزيز واحتفل الثلاثة بفتحه، كل منهم مد يده المرتجفة إلى الكيس الذي يخصه، حينها وجد عزيز بين أشيائه علبة صفيح صغيرة بداخلها أكياس أصغر لفت على بذور نباتات لم يعرف ما هي.

ـ لكن ما هذا يا أخي؟ بذور أفيون؟ سأله يامن ممازحاً.

ـ لنرى ما أرسلت أمي، إنها تعرف ما أحتاجه دائماً وحتى اللحظة لم أصل باحتياجاتي إلى المخدر، أجاب عزيز.

بعد شهر ونصف الشهر حين بدأت تظهر معالم النباتات من رحم البذور المختبئة في حضن التراب وأطلت أزهار الخضار قبل أن تعقد ثمراً، علم يامن أن الأم تعرف دائماً أكثر من جميع المخلوقات على الأرض، لكنه بعد مدة وهو يقطع بضع ثمرات من محصول الطماطم الشحيح على البصل المفروم داهمه شعور جنائزي ورأى في لفتة أم عزيز نبوءة حقيقية، لقد عرفت بحدسها أن لا نهاية معروفة لحصارهم.

شكر عقله المشوش على أنه لم يقرأ النبوءة منذ هبطت بويضات الخضار إلى تربة المعسكر وإلا لكان نبشها وأطعمها للطيور وحرم صاحبيه من ترف ما يعده بقطع خضراواتهم.

وبسخرية مكملة للنبوءة متحدية، جفف بضع حبات طماطم ليزرع بذورها في الموسم القادم وربما يربي دجاجاً، من يدري إن كانت الأمهات القادرات على كل صعب سيوصلن الصيصان إلى هنا، فكر بمرارة.

Tele: @Arab_Books

ـ ماذا سنأكل، أيقظه السؤال من ذكرياته.

ـ أرز بحليب، أجاب وكان غاضباً لأن مخيلته تضافرت مع جوعه مثيرة معدته بهياج مؤلم.

يا للجوع كم يقلص من أمنياتك، الأمنية خدر يجتاح الجسد والروح، الأمنية تنسحب لتتقوقع داخل المعدة الغاضبة.

الجوع يبدأ نصره عليك، يغزوك، أنت قرد شرس يدافع عن شجرته، يقفز مكيلاً اللكمات للص الهزيل المتسلل في وضح النهار إلى العجلات المزروعة، وحين تسقطه أرضاً مكوماً كجنين ضعيف، يلتقط بصرك أصابعه المغروزة في الثمرة التي اقتنصها وفي بهيمية ينقلها بلقمة واحدة إلى فمه المدمى وعندها يصحو بك ألم يجعلك تنتحب واقفاً متكئاً على الهواء المشوش بذرات الغبار المثارة في عراكك.

ويا أمي أريد أرزاً بالحليب.

* * *

نفخت في رؤوس القصب المسور للساقية الخامدة ريح كانت من القوة والبرودة بحيث انتعشت الأجمة بهمس ألف حنجرة خشبية، كلفظة (اح ح ح) قسرية.

الكون خلف الساتر الترابي حيث كمن في نوبة حراسته اختصار لكل الخوف وهسيس القصب، تحالف مع الظلام الدامس متحولاً لدبيب مخلوقات مرعبة، لأعداء لهم شكل كوابيس طفولته.

ازداد الظلام حلكة حتى العدو فضل الهدوء متحاشياً تحطيم زجاج البرد ولو بطلقة واحدة.

Tele: @Arab_Books

حفر عزيز قربه حفرة تتسع له وتكور على نفسه دافناً وجهه في صدره كما تفعل العصافير الرمادية المقرورة، بينما وضع نوار سماعات الأذن التي لهاتفه الجوال منصتاً لأغنية ما.

اختار هو عبء الانتباه عنهما في ليلة الحراسة حيث تغدو بها لحظة الشرود ترفاً غير متاح.

البرد يخترق ثيابه ويلتصق ببشرته، يجد أطراف أصابعه ممزقاً بنصله نسيج الصوف الذي حاكته الأم.

البندقية العمياء تغفو على تلة التراب، تعرف أكثر من غيرها أن هذه الليلة ليست لها، إنها للبرد والجوع وأحلام الصلاء والطعام والسجائر، أي شيء مطهو وحار حتى لو تراب مع زيت وماء، أي تبغ حتى لو دفع ثمن مجة واحدة كل ما يملك ليذوب الطعم اللاذع في دمه مبدداً جزءاً من كآبته ومجبراً فوضى أفكاره على قليل من التنظيم، التبغ، إنه يكاد يشم الرائحة المثيرة لسحابة الدخان المشتهاة، وعند هذا الحد عنّف نفسه قبل أن تتورط باشتهاء مذل لمتع مستحيلة، لقد سبق وأن شاهد في بداية الحصار رجالاً يلتقطون أعقاب السجائر ويفرطون البقايا ليجمعوها في ورق ويصنعوا منها سيجارة لها طعم الانحناء، الآن لم يعد هناك أعقاب سجائر، ورأى من يبحث عن نتف الخبز العطن ماسحاً عنها العفن ملتهماً إياها كحلوى شهية.

حاول ألا ينحني، اصطاد مع نوار وعزيز عصافير صغيرة بحجم إصبعه وطهاها مع الماء، زرعوا، قننوا بالكنوز الآتية داخل طرود الأم وحين اشتد الجوع وضع المادة الشحمية المخصصة للدبابات مع عشب وملح والتهموها من دون حساب لأي خطر سوى الألم الملحاح في المعدة.

Tele: @Arab_Books

هو نفسه كان طرفاً ذات يوم بمقايضة بائسة، سيجارة واحدة مقابل ثلاثة رواتب لمجندين ثلاثة، تقاسموها معاً، لكن الأنفاس الشحيحة خلفته بندم ودفعته ليقسم أنه لن يعود لذل كهذا مهما حدث.

كلما تملكته شهوة التدخين وضع حفنة رماد في فمه حتى تدمع عيناه ثم يبصقها مغطياً ثورة إدمانه بطعم الرماد الذي لا يحتمل، لهذه الغاية حمل في جعبته كمشة رماد من بقايا موقد الطبخ.

تنحنح عزيز في حفرة نومه.

- اسمع، همس بصوت هدَّه الإرهاق وهز نوار الذي نهض وأصغى لخطوات قريبة قدر أنها لعدة رجال يحاولون السير خانقين أدنى ضجة قد تصدر مستغلين الظلام.

- فرار، قرر يامن، إنهم يفرون، أضاف.

- هل نمنعهم؟

- نفر معهم، قال يامن مختنقاً بريح الأمل التي أثارتها الأقدام الزاحفة.

- لا أستطيع قدمي التوت ليلة أمس، لا أظن أنني أقوى على السير الطويل، قال عزيز.

- لن أفر، حسم نوار مفكراً بتهمة خائن التي ستلاحقه كلعنة وستصل إليها قبله واستعرضهم أولئك الرفاق الجرحى العاجزين ويد صلبة خرجت من التراب وقيدته أكثر.

- حمل يامن بندقيته ومشى باتجاه البوابة القريبة حيث لاحت ظلال قلقة، لم يلتفت، لقد علم أن أي كلمة وداع قد تقال

Tele: @Arab_Books

ستعيده وأي مساحة للتفكير بما هو مقدم عليه ستلغي خطواته وتسمره بانتظار انسحاب جماعي.

تسلم نوار الموقع صامتاً، تمتم عزيز بصلاة ودعاء لسلامة صديقه وأصحابه.

عادت الرياح الثلجية للهبوب مغطية فرار ثلاثة وعشرين رجلاً من طوق الانتظار والتروي، ثلاثة وعشرين رجلاً نافذي الصبر زحفوا باتجاه الانعتاق الذي لاح من بعيد كواحة سراب.

* * *

لم يستطع يامن إدراك كم من الوقت اضطجع من دون حراك وقد خفقت أمام عينيه في إغماضتهما الموارِبة أشباح بشريةٍ متنقلة في الضباب الحليبي لصباح لم يتمطِ بعد.

الأسر، الأسر، دارت الكلمة في داخله كغراب في بيت مهجور.

مرمياً على الأرض بين جثث الرفاق، حي لكنه ربما في مكان ما من جسده قد أصيب، لا يدري ضبط حواسه المضعضعة، مطبقاً عينيه الملوثتين بالدم الذي أخفى مظهر الحياة لدى من يراه.

تذكر مسدسه، إنه في مكانه، بلحظة واحدة يستطيع إخراجه وضغط الزناد موجهاً الفوهة إلى قلبه أو رأسه، قبل أن يحصل الغراب الذي بداخله على ما يريد.

شق لنظره من بين أهدابه الملتصقة بدم طري طريقاً رفيعاً وشاهدهم، الأرجل المخيفة لطيور الرمة التي تنقب في الأجساد

Tele: @Arab_Books

الممزقة وسمع أحدهم يطلب جر هذا وهذا وهذا ثم افصلوا الرؤوس وهاتوها للفرجة ودعوا الباقي للكلاب تأكلهم.

ـ لا وقت للسرقة يا طماع يا ابن الـ.... هات بطاقاتهم وتعال، سمع صوتاً آخر يشتم.

لم يكن ضمن خيارات الذبح، لسبب ما لم ينكلوا بالجميع، ربما لضيق الوقت وربما لأن المكان قريب من المعسكر ولأن رشقات من جهة الرفاق بدأت تئز مرعبة طيور الرمة السوداء، يد وحشية نزعت بطاقة التعريف خاصته عن صدره بسرعة مخلب وخاتم الزواج من إصبعه وهرولت القدمان منتقلتان إلى غيره.

شتائم، خبط أقدام، رصاص بعيد، رصاص صديق.

تغلغلت رطوبة التراب داخل النسيج الكتيم لثيابه العسكرية، تحول المسدس لقطعة جليد تلكز خاصرته بإصبع لجوجة، يتجاهل الدعوة القاتلة.

يصغي، يجمع ما تبقى من قوته في أذنيه ويصغي، الرصاص الصديق من جهة الرفاق ما زال يئز والخطوات التي يريدها أن تبتعد عنه اختفت.

ران الصمت على المذبحة، غادروا؟ ربما لا.

استعاد شريط الهروب، صرير البوابة أثناء خروجهم، الظلام الدامس الذي أخفى ملامحهم، لم يستطع التعرف عليهم، لكن أصواتهم بدت مألوفة لديه، الرجل الذي سار قربه كان له صوت المجند الصغير الذي يطهو طعامه على احتراق الأحذية البالية مانحاً وجهه قناعاً من الهباب الأسود مثيراً لسخرية البقية، كان يعلق حين يراه: طفل لا يعرف كيف يشعل النار.

Tele: @Arab_Books

رشقة رصاص قطعت أفكاره، سقط الرفاق قربه، سمع صوت ارتطامهم بالأرض، تهاوي أجسادهم.

تخبطوا، يصرخ ملء حنجرته (كمين)، أعماهم الظلام بينما اصطادهم الموت ببصيرة قناص.

ـ يا أمي دخيلك، ينوح رجل قبل أن يكمه الموت ولماذا ينادي الرجل أمه حين المنية، هكذا هو الأمر (في الرعب نحتمي بأسماء من نحب مهما كنا كباراً).

القامات التي سندت قامة الليل تهاوت، انتهت محاولة الفرار.

لديهم مناظير وقناصات تدحر الظلام، هو ورفاقه لم يكن لديهم سوى أمنية.

انتهت مهمة موتهم وانسحب الليل، هدأت الريح، إنه عطش والبرد يذبحه، يفتح عينيه لآخر مدى، يدهشه بياض السماء، ماء، يرشه الأبيض بالماء فيفتح فمه الجاف، لا غيوم تشوب القبة فوقه، ماء ينزل كرحمة خاصة لأجله، يلتفت إلى القتيل قربه، يبدو كمن يغفو حالماً بشيء جميل يا للسلام الذي لوجهه، هل أتت أمه إليه؟ هل هي هناك حيث رحل؟

يحاول التحرك زاحفاً، يفكر بأحياء محتملين قد يكونون قربه، يلتفت إلى جهة أخرى فيصطدم نظره بالجثمان الذي بلا رأس، كتلة غير معروفة، حزينة وبائسة.

يزحف على ظهره، إنه مصاب في خاصرته ولقد فقد الكثير من الدم، يتحسس مكان الجرح بيد متجمدة، يزحف، متر، متران، يجر

Tele: @Arab_Books

جسده، يتمزق، ثم تغيم الأشكال، الماء يرشه، يرميه الألم في الغياب، الماء، الماء، والهاوية تحت قدميه تبتلع صرخته قبل أن تولد.

* * *

راقب ظل شقيقه المهرول كقط رشيق، لا صوت لخطواته، يغيب صوب البوابة التي على مرمى البندقية.

انتابته رغبة شاذة الجنون في إطلاق النار على ظهر يامن وجرحه كي يمنعه من الفرار، كي لا يحدث ما تنبأ به بصمت منذ أعلن بأنه سينضم للهاربين.

أمسك التراب بكفيه، غارزاً أصابعه، محتجزاً جنونه داخل في الذرات البازدة للتربة المنفوشة كشعر خشن لامرأة مضطربة.

هاله شذوذ رغبته التي ولدها إحساسه بتلاشي كل الضوابط والقواعد الممسكة به رهن العقل والتوازن.

اختفى الظل، صرّت البوابة وانغلقت على المجهول.

ـ ليصل بأمان وليحمه الله والمقدسات، حشرج عزيز بصوت يحمل من الحزن أكثر مما تحمله هذه الريح من صقيع واحتمالات.

ولِمَ كل هذا الاضطراب؟ لقد فر ببساطة نزوة وكأن الأمر متعلق به وحده، وكأن الكائن المطابق له سيحيا من دونه إن حدث وقتل!

غضب، والأصابع الصغيرة لكف رجل صغير تغوص في الشعر المنفوش الخشن لأرض الجوع والحصار، البندقية تتأرجح عمياء

Tele: @Arab_Books

على شفير التلة الترابية لمتراسهم، لِمَ ورطتنا بهذا؟ آه لو قتلت أو أسرت إذاً لقتلتني ونكلت بروحي على مشهد من الكلاب والضواري.

غضب يفور ويضيق الصدر عنه فيسيل سباباً وشتائم من بين أسنانه التي تعض شفته مجبرة اللحم على النزيف، الدم في فمه، دمه، دم شقيقه، مالح وحار.

لم يمض سوى وقت قصير حين نهض ليلحق بالظلال، صك سمعه صوت رصاص قادم من جهتهم، لقد ساروا باستقامة واحدة، رصاص، رصاص.

حمل بندقيته وركض، لحق به عزيز وأحاطه بقوة مجبراً إياه على العودة، انتشر الرفاق خارج سور المعسكر وبدأ تراشق النار في محاولة لتغطية الفرار وإلهاء العدو باشتباك أعمى عن الهاربين.

تواطأ الظلام مع الخفافيش وخفتت نبرة الرشاشات، جهة ما انهزمت وابتلعها المجهول والصباح قريب لكنه مناور كخدعة حرب.

أطبق الصمت بفكيه على أعصاب نوار الملغمة.

ـ انتظروا ساعة كاملة، ألقى كبير الضباط الأمر محذراً من الاندفاع صوب أرض المعركة لتفقد ما حدث خشية الوقوع في كمين آخر.

انفجرت الألغام الكامنة في أعصابه، حمل بندقيته وسار وحيداً من دون أن يجرؤ أحد على مجاراته أو منعه.

عادت الريح للهبوب، صفعته وأدخلت أصابعها في عينيه، لم يعرف حقيقة إن كان يبكي غيظاً أم ألماً.

سار بهاجس واحد استمر يخربش بجناحي دوري محبوس مجبراً

Tele: @Arab_Books

إياه على الركض كممسوس، هاجس له وجه أمه وقامة سيرين كما رآها آخر مرة، قامة امرأة تحمل طفلاً تعتز بأبيه.

ماذا سيقول لها؟ تركت زوجك يقتل! تركت له اختيار ميتته في الطريق إليك!.

كيف سيقابل أمه حين سيطل من أول الشارع وهي تتمشى مع والده بانتظارهما وتتلهى بعد أصابعها الشاحبة المرقشة بنمش الشيخوخة، وحين ستلتفت بوجهها المجهد، ماذا سيخبرها حين ستراه وحده؟ تخليت عن توأمي ونجوت لأنني تمسكت بأخلاق بالية وغبية بينما قضى هو في هروبه منها.

ـ اللعنة عليكما، أمي وسيرين، توقفا عن التحديق بي، صرخ بصوت أجوف.

* * *

انفصل الظلام عن الأرض، نهض عنها نافضاً سواده متأففاً.

أما هو فوحيداً كأول البشر وقف على مشارف مائدة الموت المفروشة بأجسادهم، تجمد كتمثال إلى أن دفعته يد أمه من داخله فسار بينهم، تفقد الوجوه، اقترب من الأفواه المفتوحة، تحسس الجثث التي بلا رؤوس، سار حابساً أنفاسه، جثة ما تحركت، اقترب، التقط نفساً حياً من الجسد الممزق، جره خارج الدائرة التي ملؤوها متناثرين وعاد بأمل صغير أن يجد يامن حياً.

نقّب محاولاً التقاط حركة ولو تافهة، موتى، موتى، ومزيد من الموتى.

Tele: @Arab_Books

سارت الريح قربه، توقفت عن إيلامه، كنست الأجساد بيد من غبار وصقيع مثيرة رائحة الموت والبارود.

لم يصل الرفاق بعد، دهر انقضى منذ قال الوغد: انتظروا ساعة، فكّر نوار.

في الوسط تماماً وجده راقداً بلا حراك، خفق قلبه بسرعة وانقطع تنفسه، تعرق قيحاً وجليداً وبيد حرقتها اللهفة تلمس الوجه الحبيب لنصفه، أسند رأسه إلى الصدر وسمع القلب ينبض واهناً ضعيفاً كنداء من قاع بئر سحيقة، تفحص الجسد ملاحقاً بقعة الدم المتدفقة، في الخاصرة، الثقب الذي يسرب الحياة حدث في الخاصرة، الثقب المحترق نهش لحمها تاركاً مساراً رخواً تنز منه الحياة.

فتشه سابراً بكفيه وعينيه جراحاً أخرى فلم يجد سوى خدوش في الراحتين وجرح في الرأس قدّر أنه حدث حين سقط يامن، أجلسه جاذباً الذراعين الثقيلتين وحمله على ظهره.

سمع أنين الجريح الآخر، الصوت المتوسل يداً تمسك قدمه، زفر شقيقه قرب أذنه وتلا الزفير تنفس متقطع.

انحنى ظهره بحمله، نفض اليد غير المرئية وسار قدماً لا يلوي على شيء وكانت الأم تبتسم بقلق وتفرك يديها بتجاعيدهما ونمشهما وعروقهما النافرة بينما سندت سيرين بطنها ووقفت بالباب تترقبه من بعيد وتحثه برجاء لا حدود لشراهته.

* * *

في الطريق التقى دستة من عناصر الفرقة الطبية، أشار لهم برأسه من دون أن يجيب عن أسئلتهم، سرى الدفء في ظهره، الدم يذل

Tele: @Arab_Books

الحرارة لجسده، لو أموت متجمداً ويتوقف نزيفك، هاله أن يكون مصدر دفئه نزيف أخيه.

بدأ يركض وتساقط ضباب مفاجئ مغطياً طريقه، ركض بخط مستقيم، ركض بخط مستقيم، ركض بالروح التي تتأرجح على شفير الرحيل، ويا الله يا الله لا تحملني وزر الحياة بدونه.

لهث من دون توقف فاقداً كل تفكير حتى لاحت بوابة المعسكر مبطنة بقامات تترقب الطريق، انفصل عزيز عن الحشد وسارع لمساعدته، دفعه نوار بخشونة حاملاً لهفته وخوفه وفجيعته حتى النقطة الطبية وهناك انهار فاقداً الوعي قرب نصفه، ارتبك الممرض ولم يعرف أيهما الجريح، ثيابهما المبقعة بالدم ذاته وملامحهما المتطابقة فاقدة الحياة جعلت الأمر يلتبس على الفتى النظيف.

رقدا على سريرين متلاصقين، غفا نوار بعد أن تأكد من عودة الروح للجسد الممدد قربه ملفوف الوسط بشاش أصفر.

تنفسا معاً وازداد نبض يامن رغم الدم الذي فقده، تسلق النبض البئر متحدياً القاع البعيد، وبعد وقت طويل امتلأت الأسرة بالموتى، حتى الجريح الذي جره نوار بعيداً عن عيني الموت وجد جثة هامدة، تأخروا بمسافة ساعة واحدة عن إنقاذه وكان على عزيز ليلتها أن يصلي على الموتى من دون رفيقيه شاكراً الله عودتهما حيين وطالباً الرحمة لمن فرت أرواحهم بسأم من الحصار وغادروه من دون حكاياتهم التي انشغل نوار عن كتابتها بالبحث عن جسده المسحوق برداً وإرهاقاً.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

ـ القرية بعيدة عن الاشتباكات نحن هنا بأمان، قالت الأم بعد أن هز النوافذ صوت انفجار بعيد.

ـ لنعتد على ما نحياه ونحاول الاستمتاع بما تبقى لنا من حياة، للحرب مفاجآتها وهي في مجملها غير سارة، ردت سيرين وهي تكتب شيئاً على هاتفها الجوال بينما استلقت حلم على السجادة محاولة نزع جوربيها بتحريك قدميها الصغيرتين بسرعة وقوة، إنها تكره الجوارب والأحذية وما إن تنجح بنزعها حتى تضحك بظفر مطلقة من فمها أصواتاً فرحة.

ـ هل بقي الأطفال في الحي المحاصر؟ سألت الأم مستبقة الحكاية.

ـ انتظري السهرة يا أم عدي.

ـ إن كنت تتحدثين إليها أبلغيها سلامي، قالت بتأثر خجل وعادت للمطبخ.

لم تكن تتحدث إلى ياما بل إلى الخوف الذي يحاول منذ الصباح الدخول إلى قلبها، تبحث عن أخبار المعسكر المحاصر، عن صور لرجال مرهقين يبتسمون بأسنان مصفرة، تنقب بين الوجوه فقد

Tele: @Arab_Books

يطالعها وجهه الحبيب، تحتاج للتأكد من أنه حي وأنه فكر بها حين التقطوا الصورة، لديه نظرة أشد لمعاناً تضيء لها وحدها، منذ أكثر من شهر لم ينشر أي خبر عنهم، منذ أكثر من شهر وهي تحاول إلهاء الخوف بأي شيء، الخوف يحيط بها، يغلفها، يجعلها حذرة، هشة، لكنها لا تريده أن يستحوذ عليها.

إنه هلام كوني تسبح به جميع موجودات حياتها كعددٍ لا يحصى من التوائم النائمة في رحم لزج واحد، أثاث المنزل، أمها المكتنزة، شوارع القرية، سميحة الجميلة، أطفال سميحة وحلم، زوجها حسن الصامت، المقبرة السرية حيث تنمو أشجار السرو بسرعة سحرية والكتب التي اقتنصتها من مكتبة المدرسة، حكاية ياما، سطح البيت حيث تتحصن به من الاختناق.

الخوف، الخوف، تحياه ولا تريده أن يصبح حياتها لذا فهي تفعل كل ما تفكر به من دون تردد وتسير بأيامها بلا خطط مسبقة قدماً بانتظار مفاجأة تدفعها نحو باب ما من هذه الأبواب الموصدة على الاحتمالات، ترتجل سهرات قصيرة وتنفق ما يأتي به أخواها كأنه دليل اتهام تريد التخلص منه.

- المال والشبع يجعلان الانتظار والحصار أخف وطأة، تجرأت يوماً وباحت لسميحة.
- للحب أيضاً التأثير ذاته، قالت سميحة بعشق متحدٍ، سميحة التي لا تملك سوى عباءة واحدة وستة أطفال وحسن الصامت الذي يغني لها كل يوم أغنية تليق بأميرة.

* * *

Tele: @Arab_Books

افترشت بنات سميحة السجادة وجلست النساء الثلاث على الأرائك الواطئة. كن يضحكن لأن حلم نادت نوف ابنة سميحة (نوه) واختارتها لتجلس في حضنها وحين أمسكت سيرين الدفتر متخذة هيئة جادة أمسكن عن الضحك.

روت شهرزاد الحرب في الليلة التي لا عدد لها من الليالي المتشابهة على لسان ياما وقالت:

تم الحصار في الصباح التالي لليلة مبيتي في المدرسة، في الليل خرج الأهالي الذين اختاروا السلام وبقي المدموغون بالنار الذين لم يسلموا أنفسهم لعسكر السلطان حين طرح هذا شرطه بالاستسلام، البعض استسلم خوفاً وتعباً، بقي أيضاً المتحصنون داخل الدير مع الأب العجوز وأولئك الممسوسون بعشق المكان الذين يعادل لديهم تخليهم عن حيهم وبيوتهم تخليهم عن الابن والحبيب.

صحوت على صياح رجل ينادي بنغمة مسحّر رمضان: الحصار، الحصار، يا أهل المدينة، لقد طوقوا أحياءنا، الموت للخونة.

لم أنهض عن المقعد، كنت التلميذ الوحيد المتابع لدرس الرياضيات الذي ما يزال مكتوباً على السبورة ورائحة المقاعد المهجورة تمسكت بي باستجداء خائف.

بدأ القصف وجاءني صوته كأنين فالذئب قبل أن ينقض يئن ولا يزأر.

انقض على الحي المجاور، أصغيت للانفجارات القريبة متجمدة حيث أنا، الكاميرا نائمة قربي، لقد غفوت وأنا جالسة ليلة أمس وتيبس ظهري وآلمني حين حاولت النهوض وتحركت.

Tele: @Arab_Books

تعالت أصوات الناس في الشارع، خفت أن يتركوني وحيدة هنا ويرحلوا جميعاً فنهضت ومشيت إلى البوابة، خرجت للشارع، كان الهياج في أشده ومن منزل جدرانه سوداء تنبت قربه شجرة تين قزمة أخرجوا عجوزاً ستينياً، تجمدت في أول الزقاق وسمعت الحكم (حكم على الجاسوس بالإعدام) ثم طلق ناري وتكبير، مادت الأرض تحت قدمي حاولت تمالك نفسي فاستندت إلى الجدار خلفي ومن الباب الملاصق مدت يد وجذبتني إلى الداخل وكنت فاقدة للمقاومة، وجدت نفسي في مدخل بيت قديم سيكون بيتي لزمن قادم وامرأة لا سن محدداً لها ترسم الصليب بهلع على صدرها وفي الهواء من دون أن تنظر لي، ستغدو رفيقتي إلى أن تلتهمها آفة البرد ذات ليل شتائي.

* * *

فيوليت، كان اسم المرأة التي استضافتني في بيتها. رحل إخوتها وأمها وبقيت هي. لم تستطع ترك البيت.

ـ هنا ولدت وهنا سأموت، أكدت وهي تعطيني الغرفة المنفردة في حديقة البيت، بحت لها بكوني مع المتمردين وبأنه لدي الكثير من الأصدقاء هنا فأجابت بأن وجودي سيشعرها بالأمان.

ـ أنت صحافية؟ سألتني مشيرة للكاميرا.

ـ إنني عاشقة وشعرت بوخزة في صدري هنا حيث تعيش تفاصيل مدينتي، انتابني إحساس بأنها طفلة تمر بغرفة العناية المشددة، بأنها طفلتي أنا ويجب أن أرافقها في محنتها.

لم تتحدث فيوليت عن الإعدام الذي نفذ بجارها ولم أحاول

Tele: @Arab_Books

التفكير بالدم الذي تدفق من رأسه ولا بالمرأة المنقبة التي خرجت بعد ساعة على صراخها وبكائها وهي تحاول جر جثته.

- زوجي، حبيبي، رفيقي، نادته ولم يسمعها، كانت تجره من يديه ثم تعود لتحتضن رأسه، تمسكه من تحت إبطيه وتحاول سحبه إلى بيته، تحلق سكان الحي حولها ولم يجرؤوا على مساعدتها إلى أن تقدمت امرأتان وحملتا الجثمان إلى داخل البيت حيث سيدفن من دون طقوس في الحديقة الأمامية.

التقطت تلك الصورة بعدسة ذاكرتي ولم أظهرها بزئبق وعيي، تركتها مغبشة بأسودها.

* * *

حين انتهت سيرين من القراءة كانت الفتيات الصغيرات قد غفين، جاء حسن وحملهن واحدة واحدة على ذراعيه إلى المنزل، راقبته سيرين وفكرت بأن أفضل ما في حياة الأطفال هو الأب، ستذكر البنات ما عشن إنهن حيث طاب لهن نمن وأنهن دائماً يستيقظن في أسرتهن وفي بيتهن.

هل ستنمو حلم من دون أب مثلما كبرت هي؟ سألت نفسها بحسرة وتمنت لو ينكشف الغيب لتعلم ما تخبئه لها الأيام المقبلة ولتستعد لتعويض ابنتها عن محنة اليتم أو لتمنحها السعادة والاطمئنان المولودين من معرفتها أنه عائد.

لم يكن هناك طريقة لتعرف، لتتنبأ، تلك الليلة لم تستطع النوم، عادت لتنقب على صفحات (الفيسبوك) حتى وجدت صفحة صفحة

Tele: @Arab_Books

تنقل أخبار الفصيل المحاصر للمعسكر وقرأت الخبر تحت صورة لخمسة رؤوس دامية.

(القضاء على عدد كبير من عناصر المعسكر وهذه صور بعضهم بعد تنفيذ حكم الإعدام بهم).

بحركة غريزية تناولت هاتفها وطلبت رقمه من دون جدوى، لا توجد اتصالات هناك، الاتصالات متاحة فقط للخطوط الدولية، انهارت على الأرض مسحوقة تحت ألم قاهر وحين تمالكت نفسها عادت للتنقيب ووجدت صورة لبطاقات تعود للقتلى، قربت الصورة وكبرتها، بحثت بعيني صقر عن اسمه، صلت كي لا تجده، صلت كي يكون قد نجا، لكنها قرأت الاسم الحبيب على البطاقة التي ثبتتها بيديها كلما خرج إلى عمله في الأيام الماضية حين كانا معاً في البيت الحلو الصغير الذي يضوع برائحة الحريق والحبق.

قهرها الألم بقوته المفاجئة فسقطت على ظهرها فاقدة الوعي.

* * *

Tele: @Arab_Books

(معسكر)

بعد محاولة التي لم ينج منها سوى حسن الحظ يامن استحوذ اليأس على سكان المعسكر متحالفاً مع الجوع والبرد والحنين، بينما ازدادت قوة الفصائل المتطرفة ولم يعد للسلطان موطئ قدم في المدينة المنسية سوى المعسكر المحاصر وبضع نقاط في مدينة مجاورة لها.

تلاشى الأمل بمعجزة نجاة، تلاشى بنصر يخرجهم من مغارة الموت الذي يقتاتهم واحداً واحداً.

مضى الشتاء قاسياً، لم يستطع بشر منهم الاتصال بالخارج، وغدا صمودهم صمود المعلق على خشبة الإعدام.

استمرت الأمهات بإرسال الطرود دون معرفة إن كان من يرسلن إليه ما يزال موجوداً.

دارت الحياة ببطء عجوز ودار الموت بسرعة لص رشيق.

ـ ماذا تراها تفعل؟ السؤال الذي يباغت الرجال فيقض مضاجعهم، بين الحنين والشك بأن نساءهم ما زلن ينتظرن أم مللن؟

ـ ماذا تراها تفعل؟ هل تظن بأنني ميت؟ طرق السؤال رأسه بكف من حجر وبدأت رائحتها الطرية تبهت، نظر إلى شقيقه وحسده

Tele: @Arab_Books

فلقد ثبت مروره بطفلة زرعها في لحظة شغف بينما مضى هو وكأنه لم يكن، منسياً في هذا المكان، لم تعد ترسل له رسائل في طرود والدته، لقد نسيته، بينما كتبت الأم في آخر رسائلها تلك التي وجدها في كيس التبغ الخام، كتبت (زرعت حبقاً ووضعت الأصيص في النافذة المطلة على الشارع حيث ستظهر أنت وشقيقك في يوم أشعر بأنه قريب، ليظن والدكما أنني أسقيه حين يضبطني واقفة هناك، يا للحجة التي يجب أن أبرر بها انتظاري لولدي! إنه يتألم حين يراني حزينة، أنا لست حزينة لكني أنتظركما، وحين أتى الشتاء لو تدري نواري أنني لا أتوقف عن مراقبة المطر من النافذة، أنني لا أسدل الستائر أبداً يا حبيبي).

لقد ازداد نحول يامن بعد إصابته، لم يستطع تعويض الدم الذي فقده، لقد نجا بأعجوبة من المذبحة ولم يشأ التفكير بالمرأة الهشة التي تعيش صامتة وساكنة في داخله كأنها لا تريد التحرك خشية إيلامه، لا تريد له الانتباه للمدى الذي وصله بعشقه لها، عشق تنامى في هدوء، امتنع عن ذكر اسمها لكنه في بعض الأوقات حين تشتد الهزائم يمسح دموعاً تسيل على خديه الغائرين ويعلم أن سببها ضفيرة طويلة غرز بها خرز ملون، لقد فقد صاحبتها، في زحام الحرب وفي الهزيمة يزداد الحنق والشوق بالتمرد ذاته.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

عامان على وداعها لبيتها، عام وثلاثة أشهر منذ قرأت نبأ مقتل زوجها وأكده لها عدي فأعلنت نفسها أرملة على قيد الحب، تحررت من ربقة الانتظار لكنها لم تتوقف عن حبه وكانت كل ليلة تقيس وحدتها بالمدى الذي يغيظها به اتساع سريرها والألم الغامض العميق في أسفل بطنها وبتنامي غيرتها من أغاني حسن الطويلة كشعر سميحة، الواثقة الصريحة كطبعها، الكريمة كخصبها الأبدي.

لم تكن غيرتها مؤذية، لكنها غيرة، وهي نقيصة نسائية، اعتادت لوم نفسها بعد نوبة البكاء التي تصيبها كلما انتهى جارها من الغناء وانتهت هي من التنصت عليه.

حلم تكبر وتزداد ملامحها وضوحاً، لديها عينان كما الزجاج المموه وغمازة واحدة على خدها الأيسر، أرسلت لياما صورة لها التي علقت بأنها تبدو كعصفور حر.

ياما تدعو جميع الأطفال بالعصافير ولأجلهم ما تزال تعطي الدروس في بناء المدرسة الذي سمّته (كتاب العصافير) مستمرة بالعطاء بينما يستمر الحصار بأخذ أيامها والتهام كل ما تحبه في أحياء مدينتها المحاصرة.

Tele: @Arab_Books

ـ هل تكتبين؟ تسألها ياما.

ـ لا طريقة أخرى للفرار يا صديقتي سوى الكتابة، تجيبها.

ـ لا أريد أن يقرأ بشر قصتي، ما من إنسان يستحق سوى الأطفال، إننا مخذولون، عديني.

ـ أعدك، سأحتفظ بيومياتك لأجل ابنتي.

وفت سيرين بوعدها وتوقفت عن قراءة الحكاية كل سهرة، بدأت تروي حكايات أخرى تبدأ جميعها بقصة حب تولد كل فجر مع صوت المؤذن وتنتهي بمعجزة تعيد الحبيب الميت إلى الحياة، لم تكن هذه الحكايات تروق سميحة وأم عدي بينما فتنت بها الصغيرات بشدة، طالبتها الأم كل ليلة برواية ياما، لكنها لم تستطع خيانة صديقتها، لم تستطع إهداء الفتاة النحيلة التي ترسم على الجدران المهدمة فراشات وعصافير وتكتب شعراً شجياً بلا قافية، لم تستطع إهداءها خذلاناً آخر.

* * *

Tele: @Arab_Books

(معسكر)

الحرب فعل داعر، وقوعك في الحب حين تعيشها هو نهايتك، وأنت تقترفها ليلاً ونهاراً، تمارس فحشها، هتكها للمشاعر المستترة تبعد عشقك إلى آخر العالم، مثلما يخفي من يقترف الدعارة كل نقي يخصه تخفي حبك، ذكرى قريتك وأمك وزوجتك وابنتك التي لم تراها، تخفيهم تحت غلاف قاسٍ ترتديه منذ نزفت دمك وأملك على التراب الغريب لمدينة الشياطين والمسوخ هذه.

لم تعد تبكي الرفاق الممزقين بالقذائف ولا أولئك الذين قضوا بأمراض تافهة، لم تعد تتأثر لرؤية عزيز يصلي أو نوار يكتب بلا توقف ويعيد قراءة كتبه للمرة المائة وترتيق ثيابكما وجواربكما بحنكة متسول خبير.

حين تقرأ رسائل أمك يطل الحزن كبرعم خجول من تربة حياتك القاسية فتدوسه بحذائك الأسود المهترئ وتتابع عبوسك اللامبالي.

القسوة تفتك بطراوة روحك وشبابك، إنك عجوز بعمر شاب بينما مطر سحري يرش شقيقك وعزيز ويبقيهما شابين بتجاعيد دقيقة تحت العيون كعصافير شقية على نوافذ الروح، تبحث عن أرض تصب عليها فوران الغضب، تعمل وتعمل، تحارب بضراوة، النقمة

Tele: @Arab_Books

والغيظ يمنحانك قوة إضافية ويسلبانك القدرة على الحديث، أنت تقسو على نفسك، على صاحبيك ويبدو أنهما يستوعبان حالتك وينتظران انجلاءها.

في المرة الأخيرة التي تصرفت بها كوغد ندمت وأخفيت ندمك، كان هذا منذ أسبوع حين أطلقت النار على الراعي الذي شردت أغنامه اتجاهكم وأنت تراقب اللحم الحي المكسو بالصوف يقترب ظهر المسكين وحاول استعادة قطيعه وبطلقة واحدة أصبته في القدم فازداد هياج الحيوانات وعندها خاطرت مع الجائعين وسحبت الوليمة إلى المعسكر.

لم تكن لصاً كنت غاضباً وجائعاً، الجوع يحول الشريف إلى وغد، اللص الشبع لصوصيته محض هواية ولهو، يومها وأنت تتلمظ بالشواء توصلت لنتيجة بسيطة، المسؤولون الفاسدون يستحقون الإعدام لأنهم لصوص بلا دافع حقيقي، لكنك ندمت على جريمتك بحق الراعي، لقد كان الفتى يبيع العسكر بعض الحاجات النادرة مخاطراً بحياته.

ندمت وحين رأيت وجه نوار المضيء بسعادة الامتلاء ابتلعت ندمك، أردت أن تنام قربه كما اعتدت أن تفعل في أول عام من الحصار لكن القشرة التي غلفت بها نفسك منعت قدميك من الوصول إليه.

نمت ليلتها سعيداً واستيقظت عند الفجر على حلم غريب، في الحلم لففت الخصر الدقيق لها بيديك ولعقت الدبس الحار عن جسدها بجوع وحنان، نهضت مسرنماً إلى الباب وفتحته وقلت

Tele: @Arab_Books

لنفسك عند الصباح حين رأيت الباب الموارب: هي عادة، أحب الأبواب المواربة ولا أذكر السبب وراء فعلتي.

الأذان بعيد لن يصل سمعك صوته وهناك أبعدتها امرأتك الجنية التي خرجت من بئر الحكايات لأجلك ذات صباح يعود إلى زمن موغل في السلام، أعدتها لبئرها وانتظرت فجراً يأتي بها.

* * *

ـ لكل سوء وجه حسن، قال نوار.

ـ كيف؟ نظر إليه شقيقه مشفقاً من أن يكون نوار قد أصيب بانهيار ذهني بتأثير الجوع.

ـ اليأس يحمل الحرية، لا مجال للقيود والقوانين، يجب علينا الهجوم على المدينة وليكن ما يكن، نموت، ننجو، لا يهم، الانتظار يجعلنا أضعف، لنقترح الأمر في اجتماع اليوم، لم يبق لدينا الكثير.

لم يبق لدينا الكثير، ماذا تعني؟ الكثير من العمر أم من الرجال أم من الصبر، في الحقيقة لم يعد هناك الكثير من الرحمة فوق المساحات المحاصرة، المعسكر هذا القبر المفتوح على الموت.

عامان وأكثر على وجودهم هنا، على إغلاق الكون أبوابه دونهم، لم يعد لهم وجود سوى لدى ذويهم ولدى الحوامات التي ازدادت ارتفاعاً وهي ترمي الخبز الشحيح والعلب الحزينة.

بعد زمن سيتحولون إلى حكاية تروى في المقاهي كنوع من ترف شهر رمضان وسيضع الراوي نهايات سعيدة ولن يفكر السهارى بهم

Tele: @Arab_Books

بعد انتهائه من السرد، ما الطبق التالي؟ سيشغلهم السؤال ملغياً كل ما سمعوه.

ماذا سيصل منهم؟ لا شيء!! لن يستطع بشر الحصول على رفات من قضوا هنا ولا حتى على الأوراق التي ملأها صحافي التراب لأجل الأمهات الثكالى على أمل حصولهن على ما تبقى من أبنائهن.

بعد قليل من الأيام سيأتي العيد، لقد اعتادوا أن يمطرهم عدوهم بالموت كل عيد وعلى وصول كعك الأمهات والزوجات المعجون بالأمل والدموع متأخراً ومفتتاً، هذا العام أي مفاجأة يحضر لهم من غدا جيشاً مرعباً مسيطراً؟

لم يبق لدينا الكثير، خفقت أرواحهم بعنف الترقب.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

يجمعهم الخوف، المنفى، الريبة من هدوء الأيام، يجمعهم التيه في حاضر غريب ومحاولة الاستمرار بالأمل.

خيوط دقيقة تربط مصائر سكان البيتين المتقابلين، بيتي سميحة وسيرين.

منذ تغلب الظن بمقتل يامن على الأمل بنجاته ازدادت زيارات عدي ورشيد إلى منزل والدتهما وازداد قلق سميحة على عائلتها المنسوجة من دمها ودم حسن الغريب وعليه هو حسن زوجها وحب حياتها.

قتل الغرباء المنتمين لطائفة مغايرة لطائفة المتطرفين باعتبارهم كفاراً أمر بديهي وإن لم يوجدوا فسيجد الواشون ومدمنو الجرائم شخصاً يلقون عليه بتهمة عادة ما تكون تافهة ليعلقوه أو ليقطعوا رأسه.

تصدرت أخبار المدينة المنسية صفحات التواصل الاجتماعي، اعتادت سيرين تصفحها كل صباح.

إعدامات وجلد علني، تجنيد أطفال، سيارات مصفحة وملتحون يملؤون الشوارع الحبيبة مدنسين ذكرياتها.

قبل النوم تضطر لطرد الصور الدامية من رأسها.. الطفل الذي

Tele: @Arab_Books

يطلق النار على مجند مقيد اليدين والساقين، وجه الطبيبة التي وصلت بتهمة مزاولتها لمهنتها وتطبيبها لذكور إلى المشنقة، مدير دائرة الآثار العجوز الذي رفض وضع علمه في خدمة لصوص التاريخ المتنكرين خلف لحاهم وهذا الطيب تحديداً كان يلح على ذاكرتها فتستحضر الدروس التي لقنها إياها قبل خروجها في أول جولة سياحية.

شاهدت المقطع المسجل لإعدامه وسمعت صوته الجهوري: نخيل الوطن لا ينحني، قالها قبل أن ينزل السيف على عنقه ويرديه واقفاً كنخلة عتيقة.

هل كان رشيد وعدي حاضرين؟ هل شاركا بذبح أستاذها؟

تهاجمها الأسئلة وتنغرز إبراً في أعصابها وتحولها إلى قنفذ عصبي، تحاول نزعها حين يأتيان بهيئتهما الخشنة الغامضة وهداياهما، محاولين إخفاء آثار مرورهما بنفق الدم عن عيني الأم وعيني الصغيرة حلم التي اختارت رشيد لتناديه (يابا) مقلدة شاهين الذي ما إن يلوح حسن حتى ينسى اللعب وصاحبته ويركض متعثراً بساقيه القصيرتين: (يابا).

أرادت الطفلة مثالاً ذكورياً لتناديه بالأب واختارت رشيداً بينما توارى عدي خلف هالة السطوة التي تحيطه كدرع مخيف ليبقى لقبه (الخال).

* * *

ـ سنكون مشغولين في العيد لذا جئنا اليوم، ستضطر لاستعادة جملة رشيد التي برر بها مجيئه وعدي قبل العيد بأسبوع فما

Tele: @Arab_Books

حدث خلال الأسبوع ذاته سيطبع ما تبقى من حياتها وستستعيده كل يوم بالحلم أو بالتخيلات.

كانت الشمس ساطعة وحادة لذا أدخلت شاهين وحلم من الحديقة إلى الصالة الصغيرة ليكملا لعبهما حين توقفت سيارة بصخب أمام بيتها، وقفت الأم في النافذة ثم هرولت إلى الباب تفتحه وهي تضحك، لقد جاءا بثياب الحرب وبعمامتين سوداوين تغطيان رأسيهما.

ـ متى حصلت على هذه الضفائر؟ مازحت رشيد وعانقت عدي برهبة صامتة.

ـ ادخلا ادخلا، رحبت الأم بسعادة.

ـ يابا، صرخت حلم وتشبثت بساق رشيد فحملها واقترب من شاهين ليحمله على الذراع الأخرى لكن الصغير بدأ بالبكاء.

ـ إنه ابن سميحة والغريب؟ تفرس عدي بالطفل وارتعدت فرائص سيرين لدى سماعها ملاحظته، أخفت شاهين في حضنها ثم تذرعت بشيء ما وأعادته لسميحة.

ثقل الهواء وكان لشقيقيها حضور الموت وسطوته على القرية كلها.

علمت من سميحة حين تسنى لها رؤيتها أن حراساً مسلحين صاحبوا شقيقيها وانتشروا بين البيوت وأن بينهم أجانب.

في اليوم الثالث لزيارتهما حلقت طائرة فوق القرية، طائرة صغيرة غير مرئية أثارت قلق الملتحين قبل أن تبتلع الغيوم صوت محركها.

ـ سنرحل غداً، قرر عدي مساء ذاك اليوم وأدركت سيرين أن

Tele: @Arab_Books

طائرة الاستطلاع الفضولية تراقب القرية وأن لوجود عدي تحديداً استفزازاً خطراً.

المدينة والقرى المحيطة وآبار النفط جميعها بقبضة المتطرفين الذي يعد عدي أبرز قادتهم لكن في المدينة المجاورة يوجد مطار ما زال ملكاً للسلطان ومنه تنطلق الطائرات وتقوم بغارات متباعدة على مواقع جيش الخليفة المتطرف.

سهروا ليلتها كعائلة افتقدتها سيرين منذ زمن بعيد، بينما دخلت الأم لإعداد عشاء لأبنائها جلست حلم في حضن (يابا).

كانوا يتحدثون عن كأس العالم، عن المباراة المرتقبة، ويضحكون لأي سبب محاولين إزالة الحرب من بينهم، تناسي حقيقتهم التي صاروا إليها، احتضان بعضهم كثلاثة إخوة لا يفترقون.

ـ يابا..... يابا... ماء، طلبت الطفلة من رشيد.

نهضت سيرين لتحضر ماء لكن رشيد أصر على تلبيتها بنفسه، وضعها على كرسيه ونهض، دخل المطبخ وسمعت سيرين صوت أمها وقهقهة شقيقها ثم أزيزاً مكتوماً طاف في الخارج، نظرت إلى عدي ورأته ينهض متحفزاً حاملاً الطفلة برعب غريزي قبل أن يدوي انفجار قذف بها إلى الجدار مطيحاً بوعيها.

* * *

الأهداب الملوثة بدبق صمغي تكبل نظرها، عاجزة عن القيام بأتفه حركة ولا حتى فتح عينيها، يعود الأمس لذاكرتها ومضات تضيء الظلمة التي أقحمت بها، بضعة صور تتكرر على شاشة وعيها

Tele: @Arab_Books

المضطرب فترى عدي يقفز ملسوعاً ويحتضن ابنتها، ثم عاصفة غبار تقذف بها كدمية قطن بيد طفل غاضب وتلقيها على الجدار، ألم مباغت في جمجمتها وعتمة قاسية، تظن بأنها ميتة، ترهف السمع ملتقطة صوت عدي بين الأصوات المختلطة قربها.

- ضعي الصغيرة قرب أمها قد تتوقف عن الصياح حين تشم رائحتها.
- حلم، حلم، تصرخ باسم صغيرتها ولا يخرج صوتها، يعانق سمعها تلعثم الطفلة بكلمات مبهمة وصوت مقرئ يتلو آيات قرآنية منهمراً من مكان ما.
- ربما أنا ميتة والقرآن لراحة روحي، تفكر بحزن وتسقط في الظلام مجدداً.

* * *

Tele: @Arab_Books

- ٣ -

(معسكر)

يموت الأمل بالصمت ويحيا بالحركة، انتفضوا دفعة واحدة وكأن وجودهم في المساحة ذاتها لزمن طويل منحهم الأفكار والمشاعر ذاتها، كلسعة نار أيقظت إيمانهم بالانعتاق وصل الخبر.

تتشابه السجون، خلف القضبان وتحت الأرض، في الزنازين السرية، في المعسكرات المحاصرة والأحياء التي خرجت من خارطة مدنها ووضع بدلاً منها وسماً يشير إلى الطاعون.

تتشابه السجون في اليأس وفي إيقاظ الأمل بكلمة (سنخرج)، الحرية على شفا أنملة بين موجة الأمل وانكسارها تومض الابتسامات على الشفاه المشققة.

ـ سنخرج، إنهم يتقدمون، جيش السلطان يقترب من المدينة سيحررها ويحررنا ما زلنا صامدين، قال يامن بحماس وهو يلقي بصيده من العصافير والأخبار قرب توأمه.

كم مضى من الأيام منذ دخل بفرحه متخففاً من خشونته التي لبسته منذ أصيب!! لا يذكر، لم يعد يذكر لقد أضاع التاريخ في تعقب الحملة المزعومة.

Tele: @Arab_Books

وصلت الحملة ثم عادت بعد أن اقتربت من المعسكر في لعبة قوامها النار والأعصاب والأخطاء.

ـ سأخرج لأقتله، قال المجند النحيل لصاحبه على المتراس بغيظ وتصميم قبل أن يمشي اتجاه الباب هارباً إلى الاحتمالات وفي رأسه تصور للطريقة التي سيعدم بها قائد الحملة الجبان الذي تخلى عن مهمته كمن يخرج من لعبة قمار.

ـ لم يكن هذا الطموح الشرس لدى كل من فروا بتأثير يأسهم، توالى الفرار كلوثة استنفدت المعسكر وأوهنته، خرجوا جماعات تحت ضباب الفجر وظلام الليل قصدهم المدينة المجاورة، مشياً وبلا طعام أو ماء كافيين، ببنادقهم انسحبوا فراراً تاركين خلفهم رفاقاً ما زالوا يتمسكون بفكرة أن الفرار وصمة ستلاحقهم.

هؤولاء انتظروا أمر القائد بالانسحاب الجماعي وحين تأخر قراره طلبوا مقابلته في اليوم الذي اشتدت به شراسة عدوهم وأمطر المعسكر بآلاف القنابل.

تقدموا ضمن الخنادق إلى مكتب القائد الأكبر.

ـ لننسحب ضمن مجموعات كل مجموعة عدد أفرادها ثلاثون أو أربعون، اقترح أحدهم.

ـ لقد استولوا على التلة المشرفة ونصبوا قناصهم وسيطروا على كامل القطاع الغربي من المعسكر وقتلوا رفاقنا، هل سننتظر الموت.

ـ سنخرج.

Tele: @Arab_Books

ـ متى.

ـ الليلة، عودوا الآن واستعدوا.

* * *

يتواطأ الخوف مع غريزة البقاء فتغدو دودة تحفر نفقاً يخفيها عن عيني العصفور القناصتين وتسأل نفسك ملهياً إياها عن أزيز الرصاص، عن تعرقك البارد عن لهاثك الخانق، عن تهدجك بآيات قرآنية تعلمتها في صغرك لتطرد كوابيس نومك ظننت في خندقك أنها قد تجدي مع رصاص القناص اللئيم.

تسأل نفسك أنه حين قرر ذاك العالم الذي نسيت اسمه بأن أصل الإنسان قرد كان كل ما يلمسه من الغرائز البدائية هو غريزة الجنس، لو سار في خندقك لأدرك أن أصل الإنسان دودة، أقل من قرد وأكثر من وحش.

ـ لنستعد، تلهث وأنت تقولها ليامن وعزيز ملاحظاً امتقاع وجه عزيز وابتسامة شقيقك الصفراء.

تدس هاتفك الجوال في جعبتك التي أحاطت جذعك، لا قيمة له سوى بالصور والرسائل التي به فمنذ وقت طويل فقد أهميته كجهاز اتصال.

تنزع غلاف يومياتك الجلدي وتطويها مخفياً إياها تحت كنزتك التي ترتديها مدركاً أنك لا تستطيع حمل الكثير، بضع حبات تمر ورغيف خبز في جيبك، تعلق قطرة ماء على كتفك، تلصق سلاحك

Tele: @Arab_Books

بيدك، ولتتجنب التفكير بالكتب تحت السرير تراقبهما وهما يجمعان أغراضهما التي رموها عند باب الغرفة مدركين خطأهما بحمل الكثير.

تلقي نظرة أخيرة على الغرفة حيث أمضيت الحصار، على بابها كتب عزيز أسماءكم، غالية تلك الأسماء التي على باب السجن، تشعر بالهجران وكأنك تترك خلفك صديقاً مقعداً وتهرب.

آه أيتها الأماكن المقعدة.... وداعاً.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

حين عادت سيرين من الموت عادت بذاكرة سليمة لم تمس وهذا ما أدهش كل من كان حاضراً لحظة فتحت عينيها وسألت ماذا حدث لرشيد وأمها بعد سقوط الصاروخ في المطبخ؟

لم تجد خطط إخفاء الحقيقة التي أمر بها عدي، فما حدث وهي غارقة في غيبوبة بين الحياة والموت لا يمكن إخفاؤه.

ما من غطاء يتسع لكل هؤلاء الموتى الذين مضوا بعنف.

ـ دعوها تعرف لوحدها، أمر نساء العائلة اللواتي تناوبن على خدمتها.

ـ كم بقيت نائمة؟ أرادت أن تعرف.

ـ عشرون يوماً بالتمام والكمال، أجابت إحدى الخالات اللواتي ظهرن في البيت بثياب حداد سوداء وبوجوههن الموشومة بذات الوشم الذي على ذقن أمها.

ـ أريد الذهاب لزيارة قبريهما، قالت بألم وبهدوء لحظة نهضت من سريرها شبه عارية.

ـ انتظري يومين حتى تقدري على الاحتمال.

Tele: @Arab_Books

ـ لا أريد، صرخت.

أصرت الخالة الكبيرة على مرافقتها خشية أن يخونها جسدها الضعيف فتنهار حزناً وكمداً.

ـ ستذهب معي سميحة، قالت وهي ترتدي عباءتها التي بدت بها كطفلة داخل خيمة بعد أن خسرت كثيراً من وزنها، حدقت في الوجوه المحيطة بها وقرأت الفاجعة.

ـ والأطفال؟ وحسن؟

ـ لم يبق سوى شاهين، إنه نائم الآن قرب حلم نعتني به حتى يقرر عدي.

لم تحتمل روحها ثقل الفقدان، أرادت السير حتى قبورهم لتتأكد، لم ترد تصديق ما قلنه لها، لم تشأ استباق البكاء، الأم ما تزال حية، إنها في المطبخ تعد شيئاً طيباً ورشيد يحضر الماء لابنتها وسميحة تزجج حاجبيها بينما حسن يغني بصوته الشجي أغنية كتبت ذات يوم لأميرة.

أخرسها الوجع وخرجت من الباب، لم تر الحراس المحيطين بحديقتها، حدقت بهم ولم ترهم، لم تر الجزء المبتور من المنزل، لم تلتقط الهلع في ذرات الهواء، لم تستطع فعل شيء أو الاحساس بشيء عدا الألم الممض العميق المنغرس بظهرها بين الكتفين واليد التي زرعته هناك تدفعها نحو المقبرة.

سمعت بعض التحيات والتهنئات بسلامتها والتعازي بكل من فقدته لكنها لم تستطع الرد، لم تستطع النطق بكلمة وعندما لاحت الشاهدات البيضاء تحول سيرها إلى ركض حتى تعثرت ووقعت قرب

Tele: @Arab_Books

الباب، ثم نهضت، أرادت الخالة مساعدتها لكنها دفعتها بخشونة وبحثت بين القبور التي لم يوضع عليها شاهدة بعد، بحثت بقلبها عنهم ووجدت قبري رشيد وأمها متلاصقين كما ماتا لم تسعفها النار لتبحث عن سميحة.

ـ يما... يما... رشيد... يما، شقت الصرخة حنجرتها ولم يحتمل جسدها الواهن فسقطت قربهما.

* * *

بات البيت تحت سيطرة الخالات ذوات الوشم، ينظفن ويطبخن كميات هائلة من الطعام في المطبخ المرتجل على أنقاض المطبخ المدمر، يطعمن الحراس المنتشرين كالذباب في الحي.

لقد استقر الفصيل الذي يقوده عدي في موقع قريب محولاً القرية إلى مكان لراحته، يعود إليها ليلاً بسيارته الضخمة بعد أن احتل وزوجتيه منزل سميحة الملاصق لمنزل سيرين وبوجوده اختفت وجوه النساء تحت الأقمشة السوداء.

وظهرت لحى لكل الرجال.

لسبب ما منع امرأتيه من الاختلاط بشقيقته الوحيدة التي بدأت تتعافى من إصابتها بينما بقي الألم المغروس بين كتفيها مقيماً كسكين صدئة.

الطفلان حلم وشاهين كانا عزاءها الوحيد، لم تعنها النساء المنتشرات في منزلها ولا زوجتا عدي اللتان ظهرتا كمفاجأة سيئة،

Tele: @Arab_Books

أرادت أن تصاب بالعمى والطرش ونجحت، عادت لشرنقتها وفي الداخل استعادت الخيوط ولعقت الجراح الطرية في جسدها وقلبها.

سعت لأن تتعافى لأجل شاهين وحلم، امتزج زوجها مع قبيلتها من الراحلين، غدوا كلهم شخصاً واحداً له وجه أمها بذقنه الموشومة، صوت حسن، شعر سميحة، بشرة بناتها السوداء، صبا ابنيها القتيلين وطيبة رشيد وكفا يامن الصغيرتان ومع هذا الكائن عاشت أيام عزلتها.

لم يقدر لعدي أن يكون عزاء، لسبب ما انتابها إحساس بالغربة والخوف كلما عادها في بيتها، استثناها من دائرة قسوته التي طالت الجميع وكانت تلتقط في تصرفاته شيئاً من الإحساس بالذنب، لكن من اعتاد القتل كيف يشعر بشعور كهذا لأن صاروخاً أخطأه وقتل أمه وشقيقه وآخر قتل عائلة الجيران التي جاءت لتستطلع الأمر ليلة الكارثة!!.

أبعدته عن شاهين بحزم، أخفت الطفلين عنه كمن يخفيهما عن غول آكل للأطفال وتركتهما في جزيرتهما يلهوان خارج نطاق النار وداخل جنة ابتدعتها لهما من دفئها.

في توالي الأحداث التي عاشتها عرفت أن كل ما تحياه من عزلة وصمت هو مؤقت، إنها امرأة التقلبات، ضحية أمزجة الحرب السوداء، تنبأت لنفسها بفاجعة جديدة وانتظرت.

* * *

Tele: @Arab_Books

(معسكر)

تجمعوا قرب الساقية على موعد الانسحاب، وجهتهم النقطة العسكرية في المدينة المجاورة، عليهم قطع الكثير من القرى والسواقي والكمائن حتى يصلوا، عليهم أن يناورا الموت، أن يلعبوا معه، أن يدخلوا رهانه ويكسبوا.

قسموا مجموعات في كل واحدة ثلاثون رجلاً أو أكثر.

- تعال، جذب عزيز يامن إلى المجموعة التي تضمه مع نوار فتجمد كمن التصقت قدماه بالأرض.
- تعال بسرعة، شده نوار وأنزله في الساقية الجافة وبقيت يد شقيقه تمسك بيده وحين انتبه حاول التخلص منها لكن الكف المماثلة لكفه تمسكت بأصابعه.

ساروا في العتمة الدامسة بالطريق العميق الذي خطه الماء، وتفرقت المجموعات، كل بحسب ما اختارت من طريق، لم تكن هناك بوصلة سوى التوق للحياة، الظلام نسر أسود عملاق يظلل بجناحيه القامات الجريئة لرجال الفرار الأخير.

وعرة الساقية شديدة الانحناءات، لم يكن الهاربون أشقاء ليمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً، تاه معظمهم وبقيت كف نوار ممسكة بيد يامن.

Tele: @Arab_Books

ـ لقد تهنا، صوت ما همس بخوف.

ـ كان عزيز أمامي.

ـ عزيز...عزيز، ناداه هامساً.

ـ لقد تهنا عنه هو ومن يتقدمونه.

ـ كم عددنا؟ قولوا أسماءكم.

ـ يامن.

ـ نوار.

ـ منير.

ـ نبيل.

ـ سائر.

ـ محمد.

ـ تمام.

ـ علي.

ـ ديب.

ـ هواش.

* * *

على بوصلة أعدها الماء عبروا بضع قرى صغيرة ومتلاصقة، متجنبين الطرق المضاءة كمن يتجنب أفاعي الحصاد الفضية، احتموا بأسفل الجسور وتركوا متنها لقوافل المتطرفين المبثوثة كالجراد في كل مكان.

Tele: @Arab_Books

هبط الفجر على الكون غلالة غموض، منهكين وصلوا إحدى القرى مع وصول الشمس إلى السماء وعلى تخم مزرعة صغيرة مظللة بعرائش العنب الوارفة صادفوا شابين.

ـ من أنتم؟ سأل أكبرهما مخفياً خوفاً أثاره منظر الضفادع المنهكة التي خرجت من الساقية.

ـ نحن من المعسكر، أجاب ديب.

ـ لا تختبئوا هنا فهذا الكرم يعود لعائلة من المتطرفين.

ـ هل أرجو مساعدة منكما؟ سأل ديب مستلماً مهمة التفاوض.

ـ تكرموا، تحمس الشاب.

قادهم إلى حقل ذرة وعند بابه تملك يامن الذعر من أن يكون كميناً ومن أن الحقل الأصفر كشمس في لوحة رسمها طفل ما هو سوى مذبح، أثار كرم الشاب ريبته.

ـ ما من خيار آخر، قال نوار ملتقطاً ريبة توأمه.

هناك حد من الإنهاك حين تصله يتلاشى كل إدراك ما عدا النقطة المضيئة في نهايته، نقطة واحدة تعني الراحة، تضيء من بعيد وتحث خطاك.

سر محفزاً كل ما تملكه من ذاكرة وأعصاب وجسد ناسياً أو متناسياً خوفك، سر إلى طمأنينتك حتى لو كانت موتاً، لا تمنحه متعة مباغتتك، باغته أنت، امنحه تلك النظرة المذهولة التي للقتلى، سر إليه وامنحها للموت بادله الدور وانتصر، هذه المرة يجب أن تنتصر.

* * *

Tele: @Arab_Books

انتبهوا أن الضابط المسمى هواش يرتجف ويتعرق بغزارة، لم يلحظوا في حمى الفرار حالته ولا لفتهم لهاثه واستناده إلى كتف علي طوال الطريق.

وهم محشورون في مستودع بين أكوام الذرة الناضجة وبعد أن التهموا منها ما سدّ فراغ الأحشاء وأعاد للرؤوس بعض الصواب، تحول ارتجاف هواش إلى حمى، حاول الرجل الصمود لكنه بعد أن شبع وجلس في الظل انهارت مقاومته، نزع علي عنه ثيابه المبللة بالطين الذي خاضوا به والعرق الذي نز من جسده مسرباً طاقته ومدخلاً الحمى من المسام ذاتها وغطاه بقطعة خيش وجدها مرمية على الأرض.

ـ ماء.. ماء، استجداء الرجل المريض ضاعف شعورهم بالظمأ.

تعرقوا بكثرة وكانت الحرارة لا تطاق وأصابهم العطش بلوثة فقدوا معها أي إحساس بالخوف.

خرج يامن ليسأل مضيفهم بعض الماء ووجد الشاب بين المزروعات منحنياً بلباسه الأبيض وبشرته الداكنة المميزة لأهل البلد الأصليين.

ـ السلام عليكم، إننا عطشى هل نجد لديك ماء.

ـ وعليكم السلام، لدي القليل ولا أجرؤ على نقل حاجتكم من الماء خشية لفت انتباه الوشاة، لقد بدأت مطاردتكم يا صاحبي لكنني عند المساء سأرخي الساقية على المزروعات وبإمكانكم عندها الارتواء.

ـ لدينا مريض، غص يامن.

Tele: @Arab_Books

ـ اذهب سأتبعك حالاً.

لم يكف الماء الذي أحضره الجميع، رشفات قليلة لا تكفي لتبلل الصحراء التي تحولت أجسادهم لكثبان تزحف نحو التلاشي تحت شمسها وفوق نهم رمالها.

كان عليهم مغادرة المزرعة في الليل، السير للأمام قبل أن يضيق مضيفهم بخطورة وجود عسكر في بيته، انتظروا المساء وحين هبط عاد الشاب وفتح الساقية، خرجوا مموهين بالظلمة وشربوا ماء، ملؤوا مطراتهم وكل ما وجدوه من عبوات فارغة.

حملوا هواش وتحت جنح الظلام غادروا حقل الذرة الطيب، ساروا في الطريق وقبل أن ينزلوا الجسر ليختفوا تحته التفت نوار صوب الباب الذي خرجوا منه، كان الشاب يتماهى مع الليل وثوبه الأبيض يرف كراية سلام بعيدة.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

سارت في السوق الصغير متحسسة الصباح ومختبرة سلامة حواسها وقدرتها على العودة للحياة، تذكرت آخر مرة كانت مع سميحة هنا، تذكرت الحلاق الذي أخفى أول القتلى الواصلين إلى أطراف القرية في صالونه البسيط، تذكرت ذاك النهار وكيف دفنوا المسكين في المقبرة السرية التي امتلأت فيما بعد وزرعت أشجار سرو.

شمت رائحة البخور وكأنها قد أشعلته الآن في مجمرة أمها وسمعت صوتها يتمتم بآيات قرآنية على قبور المجهولين.

ـ صباح الخير يا عم، قالت للحلاق من خلف خمارها.

ـ اذهبي الله يستر عليك، قال برعب واختفى خلف ستارة صالون الحلاقة.

ظنت بأنه لم يعرفها بسبب سماكة الخمار المسدل على وجهها، في الجو خوف له رائحة العرق البشري والفطر السام، قلق ورعب والناس في الشارع تمثل الحياة العادية ولا تحياها وهي عمياء فمن لم يعد يرى كل ما اعتاده وأحبه فقد بصره، لقد فقدت قريتها، وطنها وأهلها، إنها عمياء ولا تعود للإبصار إلا حين تعانق حلم وشاهين.

ـ آه يا حلم.. يا شاهين، يا ثوب يوسف على عيني والده، ناجت

Tele: @Arab_Books

وهي تقلب أثواباً للصغيرة وهالها اختفاء الألوان من السوق لدرجة خامرها الشك في أن بصرها أصيب بخلل ما أو أن قدرة غامضة غسلت الألوان وحولت عالمها إلى تدرج للأسود والرمادي.

هناك أغطية سوداء للطفلات من عمر عامين وثياب شرعية للصبيان، تململت معدتها بقرف بارد وهي تتخيل ابنتها بخمار كئيب.

في عودتها إلى البيت فكرت لأول مرة بالرحيل من دون أن يتطرق إلى ذهنها أي مبرر للبقاء حتى رغبتها في التأكد من مصير زوجها أزاحته جانباً وفي روحها تمطى عزم هائل لم يوجد قبلاً.

هل يكون الاشمئزاز محركاً للنجاة؟ تساءلت متفقدة أوراقها والمال الذي ادخرته من عطايا شقيقيها بعد أن قررت أن ترتق ثياب الطفلة بدلاً من شراء القباحة من سوق يعرض أسوأ ما أنتجته الحرب من أزياء.

قررت الذهاب في الغد إلى دار سميحة لإحضار ما تبقى من ثياب الطفل إن لم تكن زوجتا عدي قد تصرفتا بها كما فعلتا بباقي موجودات المنزل، إذ وزعتاها على المجاهدين كصدقة عن العائلة القتيلة، هكذا قال عدي بتلعثم من يتخلص من آثار جريمة حين انتحبت مراقبة من النافذة الأثاث البسيط النظيف الذي ورثته سميحة عن والدها بائع الحليب في خروجه من البيت الحزين، كان يريد مواساتها لكنها بكت ولم تحتمل أعصابه صوتها فغضب وحطّم منفضة سجائر قبل أن يغادر المنزل.

* * *

Tele: @Arab_Books

هل كانتا تتعاركان؟ تساءلت في دخولها بيت صاحبتها الميتة بعد أن أدهشتها السرعة التي فتحت بها الزوجة الصغرى الباب، فتحته كمن سيخرج هارباً وأدخلتها كمن تريد حماية بينما وقفت الكبرى في آخر الممر المفضي إلى غرفتي النوم بمنامة زرقاء وشعر مشعث وعينين تتوقدان بالغضب.

ـ أهلاً سيرين، هتفت الصغرى مرحبة.

ـ أهلاً، نحن مشغولتان هل نساعدك بشيء قبل أن نعود لنكمل ما نقوم به، قالت الشرسة بلؤم صادم.

ـ أريد ثياب الصغير، دليني أين أجدها ولا عليك سآخذها وحدي، لا داعي لتكوني معي.

ـ تخلصت من كل الثياب، قالتها بنفاد صبر.

ـ السقيفة لم نقربها أبداً قد تجدين ما تريدين، كمن تريد استبقاء سيرين قالت الصغرى، ما جعلها توقن أنهما تتعاركان وأن الكبرى تنتظر خروجها لتكمل ما بدأته والأخرى خائفة.

ـ سأتسلقها لا عليكما، أكملا سآخذ حاجتي وأغادر، بتهذيب مرح قالتها وهي تجر سلماً صغيراً متسلقة درجاته إلى السقيفة واطئة السقف.

أحنت ظهرها ودخلت الركن الوحيد الذي لم يمس بعد رحيل أصحاب البيت.

ازداد السقف انخفاضاً، أطبق على ظهرها، على صدرها، على قلبها ومن فرجة الكوة الصغيرة تسلل شعاع نور واهٍ.

Tele: @Arab_Books

ـ أشعلي النور لو سمحت، طلبت.

وحين أضاء المكان شلت في مكانها، فقدت القدرة على الحركة، دخلت الصورة في عينيها كسيف قطع أعصابها وأفقدها القدرة على النطق والحركة.

ـ هل أنت بخير؟

ـ هل أنت بخير؟ أجيبي، جاءها الصوت اللئيم وقد لفتت صاحبته أطالتها المكوث في السقيفة الخانقة.

ـ نعم نعم إني أفتش على حاجتي، انتظري قليلاً، استجمعت شجاعتها وأجابت وهي تلتقط الرصاصات والخرز المنفرط وتنبش الحقائب التي وضعت بها سميحة ثياب أولادها للموسم الذي مضى، اختارت بضع قطع من دون انتباه وقبل أن تنزل من مخبأ الحقيقة ودعت المنظر بعينيها ونزلت إلى الأرض مستجمعة قواها كي لا تسقط بتأثير صدمة ما رأت.

* * *

لكنها انهارت في البيت، لم تراع الخوف الذي أصاب الصغيرين من رؤيتها تنشج ببكاء عصبي، تشبثا بساقيها وانخرطا ببكاء مشابه لبكائها.

جلست على الأرض فارتميا بحضنها، أبعدتهما قليلاً وحدقت بوجهيهما الصغيرين، رفعت طرف ثوبها ومسحت دموعهما والمخاط الذي سال من أنفيهما وابتسمت.

Tele: @Arab_Books

ـ لا تقلق سأعتني بك، لا تخف من شيء أنا معك، خاطبت شاهين.

أخفت الرصاصات والخرزات في جيب منامتها وانتظرت أن تهدأ أعصابها لترتب البلبلة التي أحدثها اكتشافها المتأخر، كان عليها جمع ما حصلت عليه وصياغة قصة معقولة عن حقيقة مقتل جيرانها.

الذي لا شك فيه أن نوف إحدى بنات سميحة قتلت في السقيفة وجرت إلى الخارج؛ لأن ضخامة قاتلها منعته من الدخول إلى المخبأ الضيق فالخرزات تعود لها، لعقد ملون كانت تلبسه باعتزاز وترفض خلعه حتى بالحمام.

تفاصيل كثيرة تعرفها عنهم، عن كل واحد من الأطفال الموتى، عن حسن وسميحة، عن البيت الغارق بالفقر والعشق، لم يكن من الممكن أن يأتوا جميعهم لتقصي سقوط الصاروخ في منزلها!! فهي تعلم حرص سميحة على إبعادهم عن أتفه خطر.

لقد قتلوا في الليلة ذاتها وقيض للفتاة الاختباء في السقيفة لكن القاتل اكتشفها وأطلق النار عشوائياً حتى تأكد من موتها وجرها من الباب من دون أن يدخل، الدم الجاف المبقع للأرضية الإسمنتية أخبرها بهذه الحكاية وبقي فقط أن تتأكد من شخصية المجرم، على الرغم من أن حدسها أشار إليه لكنها لم تشأ تصديقه هذه المرة.

* * *

Tele: @Arab_Books

(معسكر)

توقف هواش مستنداً إلى الهواء: اذهبوا لا تتوقفوا للتحديق بي.

ـ سأحملك على ظهري، قال علي.

ـ اذهبوا أرجوكم، اذهب لا تعصِ أمري ما زلت الضابط المسؤول عنك حتى الآن.

تحرك الهاربون إلى الأمام وهم يودعون الرجل بعيونهم لكن علي لم يستطع تركه، لم يستطع التخلي عنه، فحمله عنوة ككيس عظام وألم.

ـ دعني.. دعني لا أريد، حاول النزول من دون أن يفلح بالتخلص من قبضتي الشاب القويتين.

ـ لن أتركك، عليك اللعنة، هل تفهم لن أتركك.

(لن أتركك) كررها نوار في سره متابعاً قامة شقيقه تتقدمه في الرتل الذي ساروا به فرادى.

تلاشت كل الاهتمامات عدا الحاجة للماء والنجاة، فقد الرجال ذاكرتهم ولم يعودوا يفكرون بعائلاتهم، بوجهتهم، المهم أن يصلوا أماناً، حتى الجوع لم يعودوا يشعروا به.

مرّوا قرب السواقي الآسنة وملؤوا قرابهم ماء وشوائب من دون

Tele: @Arab_Books

اكتراث سوى للبلل المتدفق في الحناجر المسدودة برمل الظمأ، كان القيظ يأكل رؤوسهم وباتت الأقدام تسير وحدها متحسسة الطرق المتربة وحافظة الخرائط غير المرسومة لبرية الرعب والموت، لم يتوارد إليهم التفكير بمصائر ما تبقى من رفاقهم، لا وقت للحزن والقلق على الآخرين.

النجاة فردية، التصقوا بظهور بعضهم وساروا فرادى.

علي يحمل كيس الألم وينوء بالثقل، في داخله ما يزال الخوف من ذنب التخلي عن رفيق ملازماً، لديه إيمان بأنه سيحيا ليشعر به، لذا وهو في حمى الهرب يؤثث لغده بإبهام ومن دون انتباه لما يفعله.

انتصف الصباح ووجب عليهم الاختباء، انكمشوا بمرور دورية للمتطرفين فوق الجسر الذي يسيرون تحته وتوالى نبض الأعصاب المتحفزة لمباغتة مميتة، شحن الجو برعب أخرس ثقيل وبات يسمع تنفسهم المرهق، الأحذية تكنس التراب وحيوانات مصابة تجر نفسها إلى وجر واحد.

* * *

اختبؤوا على طرف إحدى السواقي حيث ينمو القصب كغابة رماح بدائية، صنع كل رجل حفرة وجلس بها بانتظار هبوط الليل.

غاص حذاؤه في وحل مخبئه ولأول مرة منذ بدأت مسيرتهم انفصل عن يامن كل في حفرة، هكذا سيكون الأمر حين يحل الأجل، فكر بحزن، وقال لنفسه إنه سيدفن قرب شقيقه وسيموتان في الوقت ذاته كما ولدا وإنه سيعمل جهده كي لا يكون هنا والآن.

Tele: @Arab_Books

كانت الساقية تلفظ ماءها الأخير في موسم القيظ لكنها منحتهم الماء الموحل كي لا يقضوا في حفرهم عطشاً ويأساً والقصب المسدل عليهم ظللهم وأخفاهم، استسلموا للنوم دفعة واحدة وسلموا أجسادهم لغفوة قلقة، حام الذباب والبعوض حولهم، قرص وجوههم وأيديهم المتخشبة على البنادق لكنهم لم يستيقظوا، طافت جيوش الحشرات مستطلعة الأجساد الهامدة وازداد طنينها، صفقت آلاف الأجنحة الشفافة القزمة محدثة صوتاً غريباً، موسيقا النوم المتسللة إلى النائمين من دون أن توقظهم، شيء من السحر وكثير من الواقع.

الصوت جسد يتهادى ولا يمسك حتى لو كان اصطفاق أجنحة الحشرات.

انتصف النهار وغدت الشمس في قسوة لا مثيل لها وبشعلة لهبها مرت على الأرض وبات التنفس يكلف جهداً مضنياً لكنهم لم يستيقظوا إلا حين هزهم الخوف المقبل على هيئة أغنية يترنم بها صوت غض مرح قادم من مكان قريب، تدحرج الصوت فوق القصب وأرعبهم، صوت بشري في الهروب قد يعني موتاً بينما صوت أي وحش آخر لا يعني شيئاً.

فتى صغير يترنم بأغنية وقحة ومتحدية، شعر نوار بأنه يعرفها لكنه لم يحاول تذكر متى وأين سمعها، قفز به الخوف إلى الاحتمالات وتقلصت عضلاته بوضعية التحفز وأصغى مع رفاقه للأصوات القادمة من نفس الجهة المقابلة تماماً لمخبئهم.

هدير دراجة نارية اقتربت ثم توقفت، حديث غير مفهوم بين سائقها والفتى تلاه صوت أداة تدق الأرض.

Tele: @Arab_Books

ربما يدفن جثة فالموت هو الأكثر توفراً هنا! ربما يزرع لغماً ليقطف أقدامهم!.

انتهى الحفر مع توقف سيارة قرب صاحب الدراجة وعلا صوت رجلين.

ـ ألا يوجد سوى واحد اليوم؟ سأل الرعب الذي يلاحقهم ويرتدي أصواتاً مبهمة تأتي من الضفة المقابلة.

ـ كلا لم أجد غيره، أجاب سائق الدراجة الأجش.

ـ قبضنا على بعضهم وقتلناهم، صوت ثالث واضح تماماً ومتماسك.

ـ بعض القتلى اختفت جثثهم ويقال إن أبو محمد دفنهم بالسر وصلى عليهم، بغيظ يقول سائق السيارة.

ـ لقد فر اللعين وسنسلخه حياً.

ـ لم أره.

ـ الله معكم يا شباب.

ـ الله معكم.

عاد طنين الحشرات والأسئلة، تحسسوا أعناقهم لكن وجود الرجل الذي تحدث عنه رجلا السيارة مع زارع الألغام وذكرى الفتى الذي آواهم في الأمس منحهم شعوراً بأنهم ليسوا وحيدين وبأن هذا الركن من العالم ليس للذئاب بالمطلق، نوار كان يعرف هذا أكثر من غيره، في هذه اللحظة عادت ذكرى عبد الله.

ـ أنقذني يا صاحبي، يا صاحبي أين أنت؟

* * *

Tele: @Arab_Books

الأغنام تعود للقرية القريبة من مكمنهم، الأجراس والرائحة الدافئة للحيوانات الوديعة تنفذ إلى حفرهم، مطمئنة كفعل يومي وعادي في وقت غير عادي ومشوه بالعنف والرعب.

منذ متى لم يسمعوا ثغاء الخراف؟ لم يروا راعياً صغيراً يقودها باطمئنان إلى حظيرتها، لم يشعروا بأن الحياة تسير بشكل عادي وأن الخوف والقتل طارئان.

وقف العسكري الذي يحمل منظاراً ليستطلع الأمر وما إن انتصب ومشى خطوة واحدة حتى واجه الراعي الصغير وجهاً لوجه من دون الحاجة لاستخدام منظاره.

ـ مرحباً، ألقى التحية على الطفل.

ـ يا رجال.. يا أهل القرية.. جيش السلطان هنا، أنقذوني، اقتلوهم، صرخ الراعي من دون مقدمات وركض باتجاه القرية معيداً بأعلى صوته الاستغاثة.

حملوا جعبهم وأسلحتهم واتجهوا نحو الشرق بسرعة، ساروا بين تلتين ترابيتين وهناك سدت الطريق ساقية مجارير القرية فنزلوا بها رتلاً أحادياً لضيقها وبدأ الجري بأقصى سرعة في الماء الآسن القذر.

تتعرج، تهبط بهم الأرض وتعلو، تصطدم أقدامهم بأشياء جاء بها تدفق بلاليع الصرف الصحي المرتجلة هذه، وفي أحد الهبوطات القاسية حيث ارتفع السائل القذر إلى المتر أغشي على هواش وكاد يغرق، سحبه علي، حمله وسار به كما فعل منذ بدأت رحلة الفرار المضنية.

الرائحة والبعوض الخبيث، إرهاق الأجساد ومسامات الحياة

Tele: @Arab_Books

سدتها القذارة، خاضوا في أنتن ما أفرزه البشر القاطنون بالقرية البائسة.

- حذائي، حذائي، صرخ المدعو ديب بعصبية هستيرية وانحنى بجذعه محولاً بيده إيجاده لكن العمق منعه، صرخ مكيلاً الشتائم وخرج من الساقية وبدأ يسير على التلة الموازية كمن فقد عقله مع حذائه، تمردت أعصابه التي ضبطها طويلاً، فقدان الحذاء دفع به إلى الهاوية التي وقف على شفيرها متأرجحاً لوقت طويل.

- انزل، ستكشفنا، توسلوه ولم يطع توسلهم بل سار هاشاً البعوض ولاعناً بأعلى صوته.

- انزل وإلا أرديتك، حمل هواش المريض بندقيته بوضع الإطلاق وكان الأقرب إلى ديب، لم يكن يهزل ولا يهدد بلا جدوى، في عينيه تصميم مخيف لم يره سوى الرجل الذي فقد حذاءه وعقله واكتفى ببصر ما يزال قادراً على تمييز النية الجادة بقتله إن لم ينفّذ حالاً ما أمر به، فأذعن بهدوء وعاد إلى الساقية حافي القدمين وبرأس يطبخه الغضب.

الرائحة لا تطاق تصيبهم بقرف لا حدود له مجبرة الأحشاء على التقلص، تبللت البنادق وسدت فوهاتها بالفضلات أضناهم التعب وأجبرهم على إنزالها عن رؤوسهم حيث حملوها لساعات طويلة بغية حمايتها من العطب.

لاحت نهاية المجرور فأسرعوا بالخروج، تسلقوا وانزلقو، شتموا وعضّوا على الشفاه الجافة، اعتلوا الضفة مبللين بهيئات بائسة

Tele: @Arab_Books

كمخلوقات من فيلم خيالي وهناك كان بانتظارهم الولد الذي وشى بهم يصحبه رجال من القرية.

بدأ أحدهم يهدد بصوت عال ما إن رآهم، لم يلق رداً لتهديداته، ساروا وكأنهم لم يروه، لم ينظروا في وجوه رجال القرية التي امتزج بها الحنق بالخوف، تابعوا في حقول القطن حتى أنهكهم التعب واستولى على أقدامهم فافترشوا الأرض بين الشجيرات الناعمة وناموا باستسلام لمد الإرهاق الذي لا يقاوم.

أيقظهم صوت دراجة نارية، مجدداً ترعبهم الأصوات البشرية أكثر من الموت ذاته، نهض يامن ونوار وذهبا لاستطلاع الأمر.

اقتربت الدراجة من الشبحين المغطيين بالطين وتوقفت حين لمح سائقها البندقية المسددة إليه.

لقد نسي نوار حذاءه بين القطن، الإسفلت يحرق باطن قدميه، تراجع إلى هامش الطريق المترب وترك المهمة لشقيقه، غرز أصابعهما في التراب متحسساً فرق الحرارة بين الإسفلت والأرض الترابية، تمنى لو يحفر لنفسه حفرة وينام بها حتى تنتهي الحرب والمتطرفون والسلطان ولا يبقى في الكون سوى حفرته وهو.

لا تطلق النار، أنا من المدينة المجاورة ولا علاقة لي بالمتطرفين، هتف سائق الدراجة وأضاف أن أبناءه في جيش السلطان منتشرون بمدن الوطن وأنه لا ينوي الوشاية بهم.

ـ هل تدلنا إلى طريق النقطة العسكرية في مدينتك؟ سأله يامن من دون أن يخفض سلاحه.

ـ ستسير في هذا الاتجاه وتصل بلدة، لكن المشكلة أنه لا يمكن

Tele: @Arab_Books

قطع الساقية هناك إلا عن طريق الجسر الذي أضاءه المتطرفون وقد تجمعوا في دورية تفتيش وإعدام تُرابط في أول القرية، ليساعدكم الله والليل، قال الرجل مودعاً.

بنصيحته انتظروا الليل وعاودوا مسيرهم.

* * *

سقط هواش، اتركني ياصاحبي.. اذهب أرجوك، توسل حين حاول علي حمله.

تجمعوا حول المريض مدركين خطورة التسلل عبر الجسر برجل محمول.

سيتسللون واحداً واحداً ويقطعونه على هذا النسق ثم يتجهون نحو الأراضي الزراعية، في الخطة لا يمكن إدراج رجل بلا قدمين تحملانه.

ـ اتركوني، اذهبوا، اذهبوا، توسلهم وأدار وجهه.

انفضّوا من حوله ببطء منكسر وسحبوا علي الذي ما إن وصلوا الجسر حتى انخرط ببكاء مر وأراد العودة لحمل هواش.

ـ لا أستطيع تركه، لا أستطيع، انتحب.

ـ توقف، هل تفهم؟ توقف، فقد يامن أعصابه وانهال عليه بالضرب بينما تكور عليٌ على الأرض دافناً وجهه في التراب.

هيا سنبدأ العبور، قال أكبرهم.

Tele: @Arab_Books

لاحت الأضواء من بعيد كلعنة محيقة، كجناحي ملاك الموت، لاحت من بعيد كنهاية نفق.

ليحمنا الله والليل.

تنهد نوار مالئاً رئتيه بالهواء وكان عليه الانفصال عن يامن وتركه ليعبر وحيداً ويد قاسية اعتصرت قلبه وهو يودع شبح توأمه الذي ابتلعه الظلام كأول المتسللين.

* * *

عوت الكلاب، عوت بدناءة واشٍ نمام، هاموا بين المزروعات، تسعة رجال، أشباح انفصلت عن ردن الظلام، طالبين القرية أو ساقيتها التي لا يمكن قطعها سباحة، إنها فرع من النهر الجبار، منحدرة وخطرة، عميقة كمؤامرة لا حل لها سوى عبور جسرها، مدينة الجسور والسواقي، مدينة الأوغاد والأمراء والشعراء، مدينة النهايات الغامضة والرؤوس المعلقة والنخيل الحر، كيف تتخطاها إلى أخرى إن لم تعبرها كما تعبر متاهة جدرانها سكاكين ورماح!.

متاهة بيوت وكلاب ضارية، لا مفر من السؤال، ساروا باتجاه رابية صغيرة شيد عليها منزل، تشاوروا من سيطرق الباب ويسأل، ما من خيارات حذرة، محاصرون برأس السهم.

تقدم نوار ونبيل والرجل الحافي ديب.

ـ سأذهب معك، قال يامن.

ـ ابق هنا، إن حصل مكروه، خرجت الكلمات كنثرات خشب بلا حياة من فم نوار.

Tele: @Arab_Books

كز بغيظ وهو يشاهد الأشباح الثلاثة تتسلق الرابية إلى البيت المضاء، ابتعدوا نحو ثلاثين متراً عن مخبأ البقية وما إن انتصبوا قرب البوابة حتى دوت طلقات رصاص استهدفتهم.

مزقت خيمة الليل ومزقت شيئاً في صدر يامن.

ـ أخي، نوار، هتف قبل أن تكمه يد قوية وتكتفه شالة حركته.

ـ اهدأ اهدأ، همس صاحب اليد قرب رأسه والشيء في صدره تمزق.

عيناه تراقبان البعيد، شبح فر واثنان سقطا بلا حراك.

نوار يا نوار.. اهرب.. تعال يا أخي.. أنت قلت إنك ستعتني بي، نوار اللعنة يا أخي ياااا نوار.

سحبه الهلع بعيداً عن شقيقه وفي ظهره سكين يحركها الهواء المصطدم بجسده، يا نوار يا نوار حملتني بدمي وتركتك.

ـ من الذي فر؟ أصغى للسؤال يتكرر بين الرفاق.

ـ نوار، لقد رأيت ظله القصير، إنه أقصر من الاثنين.

شعر بقلبه يرتجف وبيد تشده للوراء لكنه استمر بالركض مانحاً نفسه بأجمعها لقدميه.

* * *

كان الألم من الشدة بحيث لم يعد يتسع لشيء عداه، تباطأ عن رفاقه بهاجس أن يلحق بهم نوار.

تقدموا إلى أن لمحوا دوريات المتطرفين أمامهم، حاولوا العودة

Tele: @Arab_Books

من الطريق ذاتها لكن الضوء الذي لاح خلفهم جعلهم يدركون عبثية التراجع.

من الأمام ومن الخلف كاد يطبق عليهم الهلاك بفكين مضاءين، إلى الغرب قليلاً تنتشر تلال صغيرة، هرولوا كمجموعة قطط خفيفة واختبؤوا خلفها، لكنه تخلف عنهم فنزل في الساقية، غمرته المياه حتى صدره، تحسس جدارها المسوى، كانت مصنوعة من الإسمنت وتيارها جارف وحاد يتجه عكس غايته هو يريد الابتعاد إلى المدينة المجاورة والماء يسير إلى المدينة المنسية، قاومه، قاوم رغبته في الاستسلام للانجراف حيث يأخذه فقد يصب هناك في النهر العظيم وقد يلتقطه صياد ما ويعيده إلى بيته الذي له رائحة الحريق.

قد يبتلعه الحوت ويخفيه في جوفه حتى نهاية هذا الجنون ثم يرميه كيونس على شاطئ غريب.

قاوم هذيانه وتحول رأسه إلى جرح مفتوح حاول البقاء رهين حواسه المتيقظة.

بدأت دوريات المتطرفين بتمشيط المنطقة شبراً شبراً وسلطت أضواء الكشافات الباهرة هاتكة الظلام الآمن.

صمد في الماء مثبتاً قدميه على أرض الساقية اللزجة قرابة نصف ساعة قبل أن يصك سمعه إطلاق نار متبادل من الجهتين، كتم أنفاسه ملتصقاً بانحدار جدار مخبئه المائي، قفز أحدهم في الماء وتبعه آخر.

ـ يامن، بسرعة بسرعة، همس صوت ودفعته يد إلى الأمام.

ـ لنهرب، قالها وخاض في اللجة مع صاحبيه اللذين عرف بهما علي ومنير.

Tele: @Arab_Books

لاحقتهم أصوات استغاثة كأيدٍ تمد من أسفل هاوية النار تمسك بأقدامهم فينفضونها بيأس.

ابتعدوا حتى لم يعد بإمكان سمعهم الإمساك بطرقات الرصاص الذي بات يسمع مكتوماً بالمسافة.

جلسوا في الماء الذي انخفض منسوبه في هذه الجهة.

ـ ماذا حدث؟ سأل يامن.

ـ حاولوا قطع الطريق جرياً باتجاه الساقية عن طريق الجسر والتقطتهم الأضواء، البعض لا يزال حياً وجريحاً، هل سمعت الاستغاثة والأنين؟ غص علي.

بعد قليل وصلت سيارات المتطرفين مكمنهم فخفضوا رؤوسهم تحت الماء، تمددوا كغرقى كلما سلطت الأضواء عليهم، حمتهم النباتات الطافية والليل المتماهي مع ظلالهم.

مضت السيارات لكن الخوف لم يمض وبقي متشبثاً بأجسادهم المبللة حتى العظام وعند الفجر خرجوا من المخبأ مرتجفين برداً وخوفاً وكان عليهم البحث عن جحر يخفون به وجودهم ويجففون رعبهم حتى يحين الليل التالي.

* * *

اتجهوا نحو البيوت المنتشرة بموازاة الساقية والطريق الترابي الملاصق لها، كانت الكلاب تعوي بتحريض من الفجر الضبابي، أسنانهم تصطك برداً، منهكون حتى الرمق الأخير، دخلت قاماتهم الضباب، ثلاثة أشباح بعثت من الموت.

Tele: @Arab_Books

ـ من أنتم؟ هتف صوت ما.

ـ عساكر، أجاب من دون أن يكلف نفسه المتعبة عناء الإخفاء.

ـ لا تقتربوا أرجوكم من منزلي، توسل الرجل مشفقاً.

طلب يامن طعاماً وبعض الملابس الجافة، غاب الرجل داخل البيت لحظات ثم خرج بسرعة قبل أن يتسلل الشك إليهم، وهم يمضغون الخبز لفوا أنفسهم بالثياب كيفما اتفق ومشوا إلى بيت آخر، إلى باب آخر سيغلق بوجههم.

طرقوا كل باب صادفوه متلقين الجواب المرتعش ذاته الذي يتلقاه الجن حين يظهرون للبشر، اقترب نباح الكلاب وتابعت الشمس ارتفاعها، توجهوا نحو الغرب حيث لاحت غابة قصب كثيفة، غابة من بعوض وخشب احتضنتهم بصدرها الشوكي وانغرزت إبرها في أجسادهم مخترقة نسيج الثياب وسقط النوم عليهم من شاهق كصاعقة خدر غريبة.

لقد عطبت البنادق بفعل الماء والقذارة، احتضن كل واحد منهم قنبلة وغفوا في اللحظة ذاتها، دخلوا في نوم مظلم من دون أحلام كغيبوبة موت.

في غفوه سمع صوتاً يهزه ليستيقظ، يمسك بتلابيب غيابه ليعيده، ازداد الصوت اقتراباً من الصحو وتحول ليد تصفعه على وجهه ليفيق، نهض مذعوراً متحسساً كرة الموت في يده وقربهم انتصب راعٍ ومعه ولد صغير يكرر دون توقف: انهضوا استيقظوا وعليكم الأمان.

ـ سأساعدكم، قال الرجل وعيناه تفران من رؤية الأيدي والقنابل.

ـ ماء، طلب علي مستجدياً.

Tele: @Arab_Books

وهم يشربون من قربة الرجل ويتداولونها بينهم بحثوا معه طريقة إيصالهم إلى المدينة المجاورة حيث ما يزال جيش السلطان هو المسيطر فطلب منهم الانتظار، باذلاً لهم وعداً بأنه سيعود بالماء والطعام.

ـ انتظروا وكونوا حذرين فالمتطرفون يبحثون عن فلولكم، قال مودعاً ومضى مع الطفل الصامت.

* * *

عادت عبارة عزيز تتردد في قلبه (ولا تقنطوا من رحمة الله)، رددها بكثرة أيام الحصار، أين هو الآن ليخبره أن الله بعث هذه المرة برحمته على هيئة الراعي والطفل خصيصاً لإنقاذه، هل نجا عزيز؟ ونوار أين تراه وصل بهروبه؟ يخبره قلبه أن نصفه ما يزال ينبض وأنه بخير، ربما هي لعبة ذهنه المحاصر بالضنك والخوف من توحي له بأن نوار ما يزال حياً!.

قطع أفكاره اقتراب شاحنة صغيرة، توقفت في الجهة المقابلة ونزل منها رجل وامرأة دخلا الحقل المجاور كمن يتفقد مزروعاته ثم خرجا بصمت، كانت المرأة تخفي وجهها تاركة لعينيها الواسعتين نافذة ضيقة تطلان منها، التقت عيناه بهما برهة، تعلقت بنظره لكنها لم تجفل بل جلست في مقعدها قرب الرجل ومضيا في طريقهما متجاهلين الفارين الثلاثة.

حضر الراعي بالطعام والماء، تحدث معهم عن تأمين خطة للوصول إلى المدينة الآمنة وقال لهم أن يلحقوا به إلى منزله، سيعطيهم إشارة بالمصباح اليدوي.

Tele: @Arab_Books

ـ منزلي في الوهدة التي تلي هذه التلال، إنه منفرد، إنه منزل راعٍ، اتبعوني حين يحل الظلام واكمنوا قريباً منه بانتظار إشارتي، غادرهم إلى عمله وتركهم ليأكلوا ويشربوا ما حمله.

لم يستطع ابتلاع اللقمة التي مضغها، أغلقت معدته بابها وانكمشت رافضة الطعام، الحرمان الذي سامها إياه لأربعة أيام متتالية حولها لكيس جاف، شرب لبناً من الزجاجة وكان للطعم الغني المالح أثره الجيد في جسده.

قصدوا في الليل منزل منقذهم وكمنوا في العتمة المسورة للمكان حتى لاح ضوء ثم انطفأ، مرة أخرى وثالثة، تلك هي الإشارة المتفق عليها، هرولوا إلى الباب المفتوح ودخلوا منزل الرجل، منزل راعٍ بسيط وفقير كريم ومعطاء.

خرج الطفل ليحرس المكان وأحضر الرجل العشاء، لم تفلح الرائحة الزكية في جعل معدة يامن تقبل الطعام.

ـ لقد جفت، خذ هذه ستساعدك، قال الراعي وهو يقدم له قطعة بطيخ حمراء.

أحس بتفجر نسيجها الرطب في فمه ونزول عصيرها إلى معدته، الحلاوة الطرية جعلت أوصاله ترتجف كارتجاف نبات يفتح أوراقه الذابلة.

حاول الحفاظ على وعيه خارج حدود الغفو، متابعة حديث الراعي ورفيقيه لكنه غفا في جلوسه وأرخى رأسه على صدره، ساعتين كاملتين غرق بهما في النهر ومر على السوق وتناول قهوته في مطبخ أمه، ساعتين كاملتين رافقه بهم نوار بصمت والتصاق ظل

Tele: @Arab_Books

مخلص، صحا منها حزيناً، مشتتاً ولم يستطع إدراك عما يتحدثون، كل ما قالوه بدا غريباً عن العالم الذي مر به في نومه غربة لغة أجنبية.

ـ سأستطلع الجسر بعد قليل إن وجدت دورية المتطرفين فستبقون وإن كانوا قد غادروا فستعبرون الليلة وتسيرون كما دللتكم، خرج الرجل وغاب لوقت قصير ثم عاد ليودعهم لمصيرهم، كان الجسر آمناً والحظ بات كريماً معهم.

سار معهم نحو الشمال، إلى الجسر وقطعه معهم وحين استدار ليعود سأله علي: ما اسمك؟ لأعرف لمن يعود الفضل ببقائي حياً.

ـ الفضل لله، قال الرجل وهو يستدير ويمشي من دون أن يلتفت.

* * *

ابتلعهم الطريق المظلم، دخلوا في جوفه كمن يسبح في الليل بماء لا نهاية له ولا حدود لعمقه، آلمته عيناه وشعر بأنهما تتحولان لثقبين بلا فائدة وبأن بصره إبرة تتحدى جداراً قدّ من صوان.

انغرز ضوء باهر في عينيه فانبطح على الأرض وفعل منير فعله، أما علي فقد تابع السير بقوة عمياء.

سار باستقامة واحدة غير مكترث بضوء المصباح الذي مس العتمة سابراً جوفها، لم تعد قدماه قادرتين على التوقف، تمردتا على خوفه وحذره، كان غاضباً محنقاً عنيداً وفاقداً لأي رغبة في أي شيء سوى السير والسير والاستمرار به حتى الوصول إلى أي مكان، أي نهاية كانت سترضيه وستكون غايته الأخيرة وأمنيته.

Tele: @Arab_Books

غاب في الظلام وحين غاب الضوء المشاكس ناداه يامن لكن علي كان قد اختفى ومضى.

ـ لنتابع، همس منير ونهض واقفاً.

ـ ابق قربي.

سمعا خرير ماء، كم كان صعباً تمييز المكان، السواقي ذاتها والتلال، غابات القصب والبعوض، البيوت الفقيرة المتطابقة والجسور القديمة، جميع القرى توائم مولودة من ذات الرحم لذات المدينة وذات النهر توحي للتائهين بالدوران في ذات المساحة دون تجاوزها.

ببوصلة خفاش تابعا حتى وصلا ليكونا على الطريق الترابي الذي يتوسط ساقية الماء وساقية أخرى تفوح برائحة كريهة تصب بها مجارير القرية.

أخرج يامن هاتفه الجوال وحاول تشغيله دون جدوى، لقد عطب كما عطبت البندقية وأعصابه، لاح جسر آخر بلافتة مضاءة كتب عليها اسم القرية التي غادراها، إن عبراه فسيكونا قد عادا أدراجهما، إنه المدخل الرئيسي لها، تشاورا وقررا طرق أحد البيوت والاستفسار عن الطريق، وما إن اقتربا من أحدها حتى خرج من الباب شابان وفتاتان.

ـ من أنتما؟ طرح السؤال الشاب ذو الوجه الحليق.

ـ جنديان من المعسكر، أجاب منير.

ـ هل طرقتما أياً من الأبواب القريبة؟ لاح الخوف في نبرته.

Tele: @Arab_Books

ـ أبداً.

ـ معظمها لمتطرفين ومقربين من الخليفة، تنهد بارتياح ظاهر.

ـ هل تدلوننا إلى الطريق، نريد المدينة المجاورة.

في هذه الأثناء كانت الفتاتان قد هيّأتا زاداً وماء للفارين وسارتا مع الرجال الأربعة مائة متر وهناك توقفوا وأشار أحد الشابين إلى البعيد وقال: ستقطعان هذه القرية وجسرها ثم تصلان.

* * *

تائهين في المدى الشاسع بين القريتين، رافقهما الظلام وعواء الكلاب حتى تنفس الفجر وهبط على الموجودات رقيقاً كآخر حلم لطفل ميت، لاح الضوء الحليبي وغمر الكون بحثاً عن مخبأ يتجنبا به فضيحة النهار، لكن الأرض كانت مكشوفة منبسطة كراحة يد تتناثر عليها بيوت متفرقة وجرارات زراعية، ولأنه تعلم ألا يفر من القرويين اقترب مع منير وألقيا السلام على مجموعة الرجال والنساء المنهمكين بعملهم لكنهما لم يتلقيا رداً.

تجاهلوهما لدرجة ظن معها يامن أنه وصاحبه قد ماتا وروحاهما تسيران بهيئة غير مرئية.

لم يبد على الوجوه أي تعبير يدل على أن أصحابها قد سمعوا التحية أو لمحوا ملقييها.

لكن امرأة تدندن بصوت خفيض توقفت عن غنائها وسارت برأس منحن إلى حيث تجلس عجوز جميلة غطت وجهها بوشوم زرقاء عتيقة وتهامستا.

Tele: @Arab_Books

ـ أرجوكم ردوا، أجيبونا، نحن جنديان هاربان، نحن لم نذنب بحق بشر ساعدونا، عبثاً توسل منير، وهنا اقتربت العجوز وهي تحمل بيدها خبزاً وماء.

ـ يا عيني يا روح أمكما، همست وتلألأت مقلتاها بدمع حبيس.

أدرك يامن الخوف الذي يحياه الفلاحون.

ـ تعالا يا قلبي تعالا يا أمي سأدلكما أنا، سالت دموعها حتى ذقنها الموشومة بنجمة.

باغته دمعها، قوي طالما تحتك برجال مثلك، لكن حزن امرأة قد يطيح ما تبقى من احتمال وجلد، الفتاتان ليلة أمس مستندتان إلى الشابين، منحتا الرجلين القوة والجرأة ليسيرا مع الفارين، لم تنسيا إحضار الطعام وهذه العجوز الجميلة لم تنس أيضاً.

الأنوثة طيبة وخبز وقوة وفطنة لولاها لما كان الرجل رجلاً.

ـ هذا البيت، ادخلاه وقولا لصاحبه أرسلتنا (القابلة)، انه يساعد رفاقكم ويوصلهم إلى النقطة العسكرية في المدينة المجاورة، ربتت كتف يامن وعادت إلى قومها.

استمر إحساسه بكفها حتى بعد أن دخل إلى باحة البيت وطرق الباب وبعد أن خرج الرجل وخبأهما خلف المنزل في غرفة منعزلة.

لم يكن لهؤلاء الناس أسماء ولا ألقاب، وحدها حملت لقب القابلة، وحدها لمسته موقظة حنينه لأمه وشقيقه وزوجته، كيف سيركض الآن وعلى ظهره حمل حنين بمساحة كف امرأة وبوزن جبل!.

Tele: @Arab_Books

ماذا سأفعل الآن يا أمي؟ سألها وهو يطوي جسده على أرض الغرفة المربعة محاولاً الحصول على بعض الراحة.

* * *

نبههما الرجل في حال قبض عليهما أن يقولا إنهما دخلا وحدهما الغرفة من دون علمه، قدم لهما طعاماً من دون أوعية، بمنتهى الحذر من أن يتركا دليلاً على مساعدته.

كانت الغرفة مليئة بأدوات زراعية بجدران مثقبة يمكن من الفتحات مراقبة خارجها.

حاول يامن تنظيف بندقيته وحمل القنبلة، جلس قرب فتحة مراقباً بعين واحدة ما يحدث.

ـ يا حضرة المهندس، أتاه صوت ذكوري ينادي.

ـ جئتك، قال مضيفهما، مقتطعاً اسم مناديه.

هل سيسلموننا للموت؟ خامره الشك وتذكر مسدسه يوم دخل مركز شرطة المدينة، يوم وداع سيرين، لقد غرق السلاح الوفي في ساقية ما وإلا لكان أنقذه بالانتحار، القنبلة تكفي لكنها قد تؤذي المحيطين به وقد يكون منقذه بينهم وهو يخشى أثقال الروح، يريد أن يموت خفيفاً نظيفاً.

اقترب المهندس وصاحبه من المخبأ، شاهدهما من الثقوب، تهامسا بشيء ما قبل أن يدخلا الحجرة.

ـ كيف الحال؟ حياهم بود مخفياً قلقاً استحوذ على ملامحه الصلبة.

Tele: @Arab_Books

ـ بخير، هل هناك أي أخبار؟ سأل منير.

ـ اجلسا، سنتحدث قليلاً، طلب الرجل الآخر.

لقد جاء من طرف الخليفة من يخبر سكان القرية بضرورة إخلائها صباح الغد وبدأ الناس بجمع حاجياتهم ووداع بيوتهم، قص المهندس بفتور من يضبط غلياناً لا يحتمل الانفجار.

ـ سأوصلكما الليلة إلى حدود المدينتين، ستمشون بضعة كيلومترات إلى رفاقكم وسأدلكم.

ـ هل تعرف أي أخبار عن رفاقنا الذين فروا معنا؟

ـ منذ ليلتين سارت دبابة تحمل رأس أحدهم.

ـ كيف هو شكله؟ جف فم يامن وهرب الهواء من رئتيه.

ـ شعره طويل أشقر وله ذقن كثيفة جداً وجبين واسع، أنا لا أنسى أي وجه حتى لوكان لقتيل.

ـ إنه علي، اعتصرت معدته يد فولاذية وأوشك على التقيؤ.

ـ علقت الكثير من الرؤوس على جسورنا، حتى إن قريبة لي من القرية المجاورة أخفت منكم الكثير ثم وشي بها فقتلت وعلق رأسها مع رؤوس من ضبطوا في دارها، نحن لا نحب الحرب، نكره السلاح والجيوش جميعها ولو كنتم أنتم من تطاردونهم لساعدناهم في النجاة، إننا مع الضعيف لأن الله أراد هذا.

بقيت كلمات المهندس تدور في رأسه، أراد أن يسأله عن القرية التي التجأت إليها سيرين لكنه خشي سماع أخبار سيئة لذا أحجم، كانت قريتها في الاتجاه المعاكس لفراره، قريبة من حدود دولة

Tele: @Arab_Books

أخرى، تمنى لو يسرع النهار إلى نهايته وتنتهي رحلة فراره ليخلو إلى نفسه ويتفقد خساراته جميعها، ليتحسس ندوبه وقلبه، ليستطلع الحبل الذي يربطه بشقيقه والشوق الذي دفنه عميقاً لزوجته وطفلته.

مع حلول الليل جاء الرجل وأعطاهما ثوبين أبيضين وغطاءين للرأس مما يرتديه سكان القرى وطلب منهما إعطاءه ملابسهما العسكرية ليحرقها.

خرجا بثياب الفلاحين المريحة النظيفة وتحتها التصق بالبشرة المكوية بالشمس والبرد خوف عنيف.

شاهد القرية تمور بالضوء والحركة، الجرارات الزراعية والدراجات النارية تغدو فيها بقلق حشرات خائفة، تنفس الهواء الرطب المثقل بفجيعة أطلقتها أجساد السكان المودعين للقرية والبيوت والحقول، ستبقى بعدهم وتقلق نوم المتحاربين وتفسد الثمار وتهيج البعوض والكلاب.

وقف المهندس بدراجته النارية وهتف: اركبا.

انطلق بهما متجاوزاً الضوء صوب البرية الخالية، لم يوقفهم أي حاجز للمتطرفين، لم تعو الكلاب، سار الأمر بسهولة وعند نقطة ما نزلا وودعا منقذهم.

ـ انظرا إلى تلك النجمتين، سيرا وضعاهما أمامكما، ستصلان بإذن الله.

أين هو نجم عناق ليخبر سيرين أنه نجا لتنتظره قليلاً، قليلاً فقط.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

تحصنت خلف هدوئها الفطري، بأعصاب مشدودة وحريق هائل يلتهم ذهنها ويحرمها النوم وشت به هالتان زرقاوان أحاطتا بعينيها المموهتين وازداد لون بشرتها اكمداداً.

مع العباءة السوداء التي لم تبدلها منذ استيقظت ولم تجد أحبتها بدت كطائر غريب الهيئة، انصرف اهتمامها إلى اكتشاف الحقيقة والتخطيط للهرب إلى أي مكان خارج هذا الجحيم الشرعي.

لم تتحسس رغبتها في الحياة إن كانت ما تزال سليمة لكنها صحت بأمومة لا لبس فيها جعلتها تفكر بحياة أفضل لابنتها ولشاهين أيضاً.

كيف ستحيا الطفلة بلا مدرسة وبأم محطمة وأب ميت ورفيق يتيم محاطة بالخوف والترهيب، كيف سيحتمل صدرها الصغير ثقل الهواء الملوث بالبارود والغبار.

لقد فرض عليها عدي طوقاً من أناس اختارهم هو كي لا تختلط بمن سيشي به لديها، لم تخرج من دون رفقة خالتها الكبرى، إنه ما يزال شقيقها الأكبر وفي داخله يخشى فقدانها كآخر ما تبقى من عائلته، جردها من هاتفها النقال صلتها الوحيدة بالأخبار والعالم،

Tele: @Arab_Books

حين بحثت عنه أخبرها أنه تحطم في الانفجار، لقد تذكرت أنها اعتادت إبعاده عنها وتركه في غرفة نومها حين تجلس مع أمها وشقيقها خوفاً منها أن يسلبها انهماكها في القراءة متعة اجتماعهم معاً، غرفة النوم لم تمس، لم يهدم بها جدار ولا تحطم بابها.

ـ أين سقط الصاروخ الثاني الذي قتل عائلة سميحة؟ سألت خالتها موقعة المسكينة ببلبلة وارتباك.

ـ في المطبخ أيضاً، قالت الخالة وهي تشيح بوجهها هرباً من عيني سيرين التي تظاهرت بالضيق وبأنها ترغب في زيارة قبورهم اليوم من دون انتظار لزيارة يوم الجمعة المعتادة.

ـ لن يمانع عدي، أريد أن أكون وحدي، رجت المرأة بحزن وانكسار.

ـ حسناً لكن لا تتأخري، سأعتني بالطفلين.

غطت وجهها بخمارها الثقيل وارتدت حذاء بكعب عالٍ يغير من قامتها ومشيتها وخرجت بعد أن لثمت شاهين وحلم.

كان محيط البيت خالياً من الحراس، لقد غادروا لسبب ما حاملين جميع أسلحتهم ومكبرين بصوت عالٍ.

مشت بثقة من لم يعد لديه ما يخاف فقدانه، عرفت وجهتها منذ بدأ الشك يخامرها، تخيلت خطواتها وكيف ستسأل عما حدث، كيف ستطلب سماع الحقيقة من حلاق القرية الشجاع وزوجته اللذين شاركا في دفن أمها في دفن الغرباء وزرع السرو فوق قبورهم.

لأيام طويلة رازت خطورة ما هي مقدمة عليه، راقبت الحراس الملتحين حول المنزل، انتظرت سهوهم لكن المفاجأة كانت

Tele: @Arab_Books

انسحابهم الكلي من المنزل وتوجههم إلى حرب حلموا بها وتحمسوا لها كثيراً.

نفذت ما تريد قبل أن يتسنى لعدي إحضار بديل عنهم.

كان النهار ثاني أيام العيد والسوق مغلقاً، قصدت منزل الحلاق وطرقته بقوة.

ـ من؟ سمعت صوت ولده الفتي.

ـ أريد والدتك، تذرعت بحاجتها لمساعدة الممرضة القديرة زوجة الحلاق.

فتح الباب بتردد فدفعته ودخلت إلى صالة المنزل الضيقة.

لم تلمح الفتى، لقد فتح لها الباب واختفى لينادي أمه، حتى داخل المنازل سرت تعاليم المتطرفين بحد الرعب الذي نشروه.

ـ أهلاً، دخلت المرأة النحيلة النشيطة كنحلة طنانة.

ـ خالتي، نزعت سيرين خمارها وارتمت بالحضن الضيق مجهشة بالبكاء.

ـ توقفي، سيرين هذه أنت؟ منعوني من رؤيتك منذ ضمدت جرحك، تركوني أعلّم خالتك كيفية العناية بك ومنعوني من الدخول إليك، كيف جئت؟

ـ لقد غادروا، قالت سيرين وهي تمسح دموعها بكم عباءتها.

ـ منذ اقتحموا المعسكر لم يعد لديهم الوقت لمراقبتنا، وقتهم كله لمطاردة العسكر.

Tele: @Arab_Books

ـ نوار شقيق زوجي، دقت صدرها بعنف، دقته مجدداً كمن تريد انتزاع قلبها.

ـ ماذا هناك؟ سمعت صوت الحلاق بعد أن أقلقته الجلبة التي جاءت بها الزائرة المجهولة.

بعد قليل وجدت نفسها محاطة بالزوجين تبكي وتنتحب وتعانقهما متنشقة رائحة الأمان القديمة بالجسدين الحيويين وتقص عليهما شوقها لزوجها القتيل، كيف تعرفت به، كيف تزوجا وكيف فقدته وكيف استيقظت لتجد عالمها مقوضاً يحكم بقاياه عدي المجنون كمجرم حرب محترف.

ـ لقد قتل سميحة وعائلتها، قالت بثقة.

ـ من أخبرك؟ سألها الحلاق.

ـ لا أحد لقد عرفت لوحدي، هل ما عرفته حقيقة؟

ـ نعم، قال الرجل بيأس الشجاع حين يهزم طبعه الصادق الصريح حذره، وانهدّ يروي لها تفاصيل تلك الليلة بين شهقات زوجته وصمت سيرين الذي حبست خلفه كل دموع الكون وخذلانه.

* * *

عادت إلى البيت وفي رأسها شريط عرض سينمائي يعيد مأساتها، بموتهم خرجوا من وجعهم وبقي لها أن تحياه ما عاشت، الموتى هم الأحرار الوحيدون في عالمها.

شاهدت مقتل زوجها في فراره إليها وكيف انتزعوا بطاقته وتركوا

Tele: @Arab_Books

جثته للضواري، شاهدت نوار يفر ويتوه في الظلام المميز لبراري القرى النهرية وغابات القصب، شاهدت ليلة الجريمة حيث قتلت الأم ورشيد بصاروخ أهداه السلطان لزعيم من زعماء المتطرفين يدعى عدي.

شاهدت عدي يفور غضباً وغيظاً، قبل أن يدفن أمه وشقيقه يقتحم بسلاحه بيت الجار المنتمي لطائفة مغايرة، حتى إنها ليست طائفة السلطان ويردي الرجل ثم يبدأ بإبادة العائلة، سميحة حين سمعت إطلاق النار دفعت بأقرب أطفالها إلى السقيفة الواطئة لكن غضبه لم يكن أعمى إنه أكثر دقة من ذئب جائع.

كوّمهم في الغرفة، جثث فتية وجميلة وبحث عن شاهين ونوف، مشط البيت حتى وجدهما.

قتل نوف بغيظ لكن ضخامته عاقت دخوله إلى مخبئها، مد يده في الظلام فأمسك شعرها الطويل كشعر أمها وجرها خارجاً، شاهين كان يبكي، أراد أن يرديه لكنه أنفق الرصاص على الجدران فنسيه حين تجمع أتباعه وسكان القرية، أحاطوا بالمنزل بعد فوات الأوان ولم يجرؤوا على الاقتراب لكنه أجبرهم على حفر القبور، يجب أن يدفنوا بشكل لائق، في الليلة ذاتها دفن الجميع، رشيد والأم، سميحة وحسن والأطفال.

حملت إحدى الخالات شاهين وأخفته، وضعته قرب حلم فصمت مطمئناً إلى الرفقة التي اعتادها.

الشريط يعيد نفسه، إنها صامتة كجدار منقط بدم من أعدموا عليه، شاهدة على الجريمة وصامتة.

Tele: @Arab_Books

الشريط يعذبها، يقلقها تبدل زمنها، إنه زمن رديء يخونها كل لحظة ويحكمه السيئون، يحاصرها بلا سند يقيها السقوط، يحولها لسند يتيم لطفلين يتيمين.

سأفر من هذا الحصار بالطريقة الوحيدة المتاحة، السير في وضح النهار وتحت عيني عدي وبموافقته أيضاً، الخروج تحت حماية العدو ذاته، يا لها من طريقة للهرب، ستصادق السور لتقفز عنه، ستعانق الذئب كي لا تراه، ستحتضن طفليها وتنجو بهما، إذ لطالما قامت النساء بالتنازلات والتسويات وأخفين ثورتهن تحت الوهن.

* * *

إن كان نوار قد تخمر بالليل ليهرب كما ظنت فقد قررت اتخاذ خطة معاكسة.

حاولت ألا تسمع شيئاً عن فرار العسكر كي لا يفضحها رجفان قلبها، أرغمت نفسها على الصمم والعمى والبكم، يجب أن أنسى يامن، لقد مات ويجب أن يموت في داخلي لأحيا ويحيا حلم وشاهين، قررت بقسوة.

تحملت جهد الجبابرة واضعة كل ما يمكن أن تختزنه امرأة من دهاء لتقنع عدي بضرورة مغادرتها الوطن.

ـ حين سيقلبوا الطاولة يا عزيزي يجب أن يكون لديك مكان وشخص تلجأ إليه في الخارج، قالت ببرود جعله يغضب ويفور ويخرج كعاصفة قبل أن يحطم عظامها الرقيقة لكنه عاد بعد

Tele: @Arab_Books

أيام، كان هناك انقلابات على فصيلهم الذي أباد أعداءه من الفصائل الأخرى وصفاهم بقسوة لا تردد بها.

- ستخرجين مع الطفلين إلى دولة أوروبية وتستقرين هناك بتاريخ نظيف وعمل محترم ولن تعودي إلى هنا.

ابتلعت السكين وابتسمت ابتسامة صفراء مريضة.

- متى سيكون هذا؟

- حضري نفسك غداً سأقلك إلى الدولة المجاورة بالسيارة وستقيمين عند أصدقاء لي حتى تجهز أوراق سفرك وإقامتك وعملك كاملة، لن أرميك كيفما اتفق، أنت ما تزالين شقيقتي، أضاف قبل أن يخرج ويغلق الباب.

بابها أغلق في وجهه منذ قتل سميحة، لم يعد شقيقها، لا تستطيع إجبار نفسها على العودة لحبه، على الإحساس الجميل بحمايته، لا تستطيع حتى شكره ولا مقاسمته فقدانها للأم ورشيد وكأنهما يخصانها وحدها.

تصنعت البرود وهي تجمع أوراقها وتعيد ارتداء الحرز الذي خبأت به عقد زواجها، وضعت قرطي الفيروز وخاتم الزواج في فردة جوارب حلم التي يملك يامن الفردة الثانية منها، داهمتها الذكريات وبكت وهي تطوي الثياب داخل حقيبة ضخمة أحضرتها من منزل سميحة.

اجتمعت تفاصيل ما مضى حولها، رائحة الأم ووجودها الشجاع، سميحة وغناء حسن، الأطفال، يامن ومنزلهما، لم يبق شيء، إنها لم تعد تملك شيئاً سوى حلم وشاهين وشجاعتها الموروثة.

Tele: @Arab_Books

حين سيشرق الفجر سترحل عن هنا، الفجر موعد عشقها، لن تنام، لن تستطيع النوم.

حي على الصلاة.

ارتدت عباءتها وأسدلت الخمار على وجهها وجلست في صالة البيت منتظرة عدي.

* * *

كحوت يسبح في مائه الخاص عبر بها عدي الحدود، دخل البلد المجاور من معبر بين جبلين تبدو الصخور به كوحوش تجمدت في لحظة انقضاض، أسلحة ولحى ورايات سوداء وعدي يسبح وهي على ظهره وفي محيطه، صامت وخشن وقد أرهقته قيادة السيارة لثلاث ساعات متتالية من دون توقف.

في أول قرية ودعها ضيفة عند عائلة من وطنها، غادرها وراقبته وهو يغيب داخل السيارة، خشيت أن يعود، أن يصحو ويتراجع لكنه مضى كمن يرمي ثقلاً أرهقه طويلاً.

أحقاً كان يتعذب بوجودها؟ لو كان الأمر حقيقة إذاً لسعدت بالعذاب الذي أذاقته لشقيقها.

مكثت في ضيافة زوجين وابنهما الصغير أياماً عدة لم تطلب بها شيئاً ولم تتبادل الحديث معهم، عادت لقوقعتها وانتظرت انتهاء مرحلة الصمت، انتظرت الوصول إلى مكان تستطيع به استخدام صوتها لأمور أكثر أهمية من طلب ماء أو طعام أو تقديم الشكر.

وحين كان على الرجل إيصالها للمطار، أعطاها جواز سفر وبطاقة

Tele: @Arab_Books

طائرة وأوراق سفر كاملة للطفلين ومحفظة يد متخمة بأوراق نقدية ودس بيدها ورقة كتب عليها رقم رصيد في بنك مجهول لم تسمع به.

ستغادر كمواطن عادي، لم تودعهم ولم تنظر في وجوههم، تركت عباءتها السوداء على السرير الذي كانت تنام عليه.

تركت الماضي خلفها تحت العباءة، عبرت السيارة بها الشوارع المضاءة المبهرة إلى العاصمة ثم إلى المطار وبقيت وحدها تحتضن الطفلين منتظرة إعلان الرحلة إلى المستقبل.

* * *

Tele: @Arab_Books

(بعد المعسكر، بعد سيرين)

ناقص الروح والقلب، كلعبة (بزل) تالفة بقطع ناقصة، كم يلزمه من الصلابة لتخطي المدينة المنسية وقد ترك نوار وسيرين هناك.

كما غادر القرية منذ سنتين ونصف السنة عاد بذقن وشعر حليقين وبشرة حمصتها شمس لئيمة، بجسد هزيل وقلب أعطبه الفراق.

زغرد الرصاص احتفالاً بعودته، حيّا سكان قريته الذين خرجوا للترحيب به، سور الغياب يفصله عن الجميع، في أول شارع بيته ترجل من السيارة العسكرية عد خطواته ضابطاً القلب عليها ولمحهما، الهيكلان النحيلان لوالديه، كانا يقفان متكئين على بعضهما، يداها المعروقتان تخفيان وجهها الطيب بينما احتضنها الأب وخلفهما وقف أهل حارته وجيرانه.

ـ جئتك وحدي، لم أستطع حمله يا أمي، يا أمي سامحيني.

سيذكر ما عاش انهيارها قرب قدميه، غصن جف وتخلى عن شجرته، سيذكر ما عاش وزنها الخفيف كوزن طفل حين حملها ودخل بها منزل طفولته.

لأجلها فقط سيفعل أي شيء، لتبتسم فقط، لتغفر له ضياع نوارها.

Tele: @Arab_Books

لأجلها فقط سيستسلم لحياة من دون سيرين، الرضوخ للعائلة والرضى بزوجة صغيرة من طائفته تملأ بيته بأطفال كثر يحملون ملامح نوار واسمه محرفاً.

لأجلها سيكون الزمن القادم زمن ما بعد المعسكر، ما بعد سيرين.

زمن صامت يدور به في المدينة المدمرة، شرطي عادي بذاكرة مستأصلة لا تحركه سوى الأخبار القادمة من المدينة المنسية، أسماء من نجوا ثم زيارة عزيز الذي نجا وعاد لقريته وجده.

يوم زاره نكأ ذاكرته لم يكن قد مضى على زواجه الجديد سوى بضعة أشهر فقط.

ـ تزوجت؟ سأله عزيز.

ـ كان لا بد من أجل أمي.

ـ وزوجتك؟

ـ إنها تعدها سليلة أعدائنا وسبب مأساتنا، لا أريد إيلامها يا عزيز.

ـ هل تعرف شيئاً عن ابنتك وعنها.

ـ لا شيء.

كيف يمكن لحديث يدور عن الماضي أن يكون بهذه البساطة؟ سأل نفسه بعد وداعه لعزيز.

تلك الليلة حلم بها وزوجته الصغيرة تغفو قربه.

صحا على أذان الفجر البعيد، نهض إلى الباب وفتحه مواربا.

دفن رأسه في الوسادة وأجهش، مسحت رأسه بكفها الناعمة.

ـ ستشفى.. ستشفى، قالت وهي تحتضنه.

Tele: @Arab_Books

كان لديه بريده الإلكتروني حيث طلب منها مراسلته يوم تودعا لكنه لم يجرؤ على فتحه، لم يستطع فعل هذا وخيانة أمه، لقد خانها يوم عاد من دون نوار.

ربما تنتظره في مكان ما، ربما ماتت، ربما ستأتي ذات فجر لتنقذه من كل ما عاشه وحطمه ولتخبره أن ما حدث لم يكن سوى حلم.

حتى هي ربما تكون حلماً.

ألم ينجبا حلماً! أي حياة ستمضي، أي خراب أصابه؟

كل ماضيه لم يكن سوى رؤية هشة بددها الصباح.

* * *

Tele: @Arab_Books

(سيرين)

أمام الشاشة الكبيرة تسمرت مبهورة الأنفاس، تراقب بعينين وسعهما الانفعال الفتاة النحيلة بثوبها الباهظ وملامحها المرهقة الرقيقة تغطي وجهها بكفيها السمراوين وتبكي قرب المخرج صاحب الوجه الطيب وأمامها الحشد الأنيق الذي جاء ليشاهد وجع بلادها على شريط وثائقي يعرض حصار ذاك الحي ويمنحها جائزة أفضل فيلم وثائقي لهذا العام.

ـ إنها ياما، همست لنفسها ومسحت دمعتين.

ـ رائحتك مذهلة، قال صديقها الذي يقف خلفها بمسافة عناق.

ـ هل سنحتفل الليلة لأجلها؟ سألته بفرح وهي تشير إلى الفتاة على الشاشة.

ـ هل ستقصين عليّ حكايتك السرية؟

ـ لا، حسمت وعادت لمتابعة الحفل.

كان لديها ماضٍ أرادت تغييبه لتستمر في وظيفتها المرموقة بهذه المحطة التلفزيونية الأجنبية.

احتفظت بحكايتها ضمن دفتر واحد خبأته لحلم وشاهين.

Tele: @Arab_Books

أرادتهما أن يعرفا الحقيقة حين يقسا ظهراهما ويغدوان قادرين على حملها، وفي زاوية معتمة من قلبها خبأت العشق الذي عاشته مع يامن، لم يكن بمقدورها العودة ولا حتى الاتصال بعائلته لم تشأ معرفة أخبارهم.

القصص التي تنتهي بعبارة (التقيا وعاشا معاً إلى آخر العمر) لا تكتبها الحرب.

يكفي أنها ستذكره كل فجر وستنهض حين تغلبها الذكرى لتفتح نافذتها وحين سيسألها رفيقها.

ـ لِمَ تفتحين النافذة سيرين؟

ـ أحب الأبواب الموارِبة، هي عادة لا أذكر متى اعتدتها.

* * *

Tele: @Arab_Books

تمت

31/8/2017

Telegram: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

هذا الكتاب

في البراري المؤثثة بالسماء والتراب حيث يتلاشى كل شيء، وجده، منذ طفولته استهوته البيوت المهجورة الخربة، لم يجرؤ على دخولها وحيداً دون رفقة، لكنه الليلة دخل المنزل الذي بلا سقف فالخوف إحساس يتعلق بالجسد والحلم انطلاقة روح، وهو يخطو فكر بالناس الذين سكنوه، رسم ملامحهم، ثم تمردت الفكرة على العقل ورآهم، انفصل عن جسده، تبع الطفل الذي خرج من إحدى الغرف ودخل أخرى، كانت هناك ترضع برعماً وردي وحين رفعت رأسها عن رضيعها وبدت كمن رأته، ذابت في حجر الجدار، انتهى الحلم، لم يصحو لكن الحلم انتهى كشريط فيلم قديم، انتهى، غاب البيت وبقي هو معلقاً في الفراغ المغبش.

Arab_Books

رسمة الغلاف: عبد القادر عزوز

ISBN 978-9933353537

9 789933 353537